مجلة كليّة
الدعوة الإسلامية
عشر
مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة تصدر سنويًا
1424 من ميلاد الرسول ﷺ 1995 أفرنجي

إختتام النّبوّة

ظاهرة الشّعراء الكُتّاب في ليبيا

مالم يُذع من المصطلحات النحويّة

مجمل لتاريخ الكنيسة

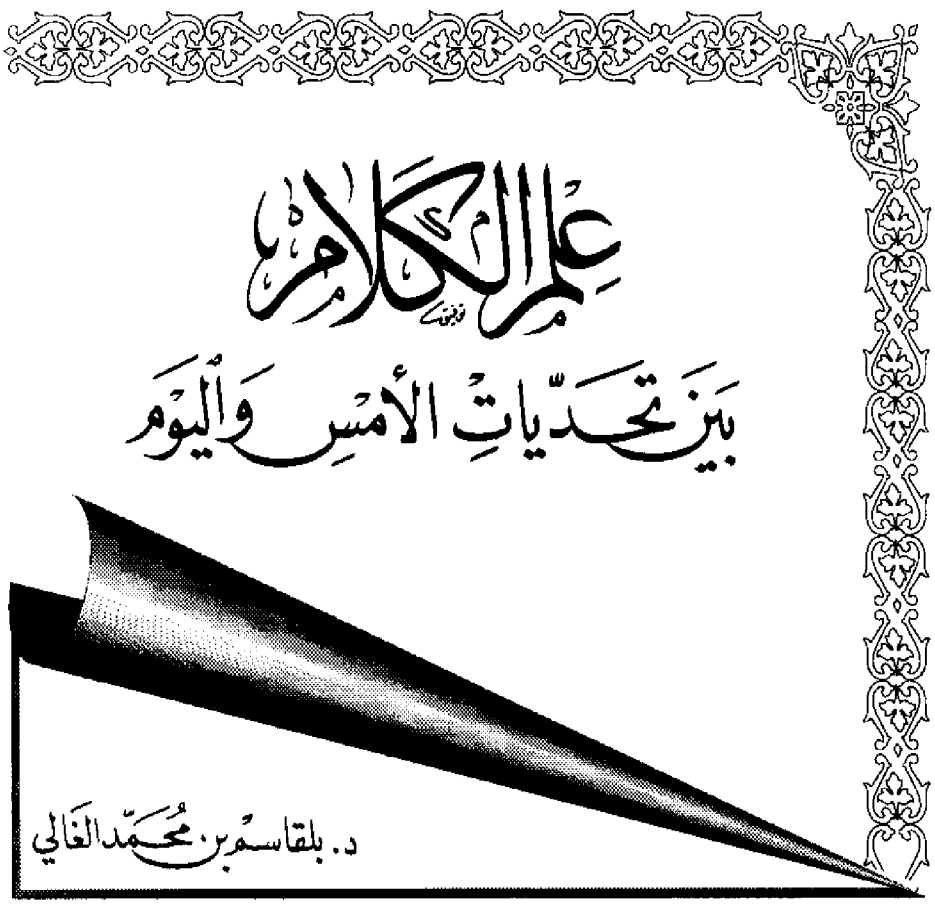

تجديد علم الكلام الإسلامي

تمهيد:

علم الكلام الإسلامي أنار العقول، ووضح المفاهيم، فكان درعاً للإسلام، وسلاحاً بيد علمائه ضد الآراء، التي تخالف وجهة نظر الإسلام في المسائل الاعتقادية والكون والحياة.

وهذا العلم قد أدّى دوره، وأخصب الفكر الإسلامي، فحلّ القضايا الشائكة حلولاً طريفة، ونافح في سبيل العقيدة الإسلامية، فأثبت للخالق الوجود والكمال والتنزيه المطلق عن كلّ ضرب من ضروب التشبيه والتجسيم، كما وردت بذلك النصوص في حجج بليغة وأدلّة قويّة. وبرهن على صدق النبوة ببيان المعجزة وشرف الأخلاق، ودلّل على إمكان الآخرة بحجج

أخلاقية ونفسية، وقدّم بياناً لمسائل كلامية ومعضلات فلسفية، واستلهم من المصادر الإسلامية، واستضاء بها. واقتبس من علوم الأوائل، ووفّق بين مفاهيمها حتى اختلطت مباحث علم الكلام بمباحث الفلسفة... ثم طرأ على مباحث هذا العلم ما طرأ على بعض العلوم الإسلامية من بعد عن الابتكار والتجديد، والتردّي في مهاوي الانحدار والسقوط. وصار الاجتهاد في علم الكلام منحصراً في ترديد مقالات السابقين. وشرحها أو توضيح متن وحلّ مغلقاته وصارت كتب السابقين تحاور في الألفاظ وتناظر في الأساليب على حد تعبير الشيخ محمد عبده. وتخلف ركب هذا العلم تبعاً لتخلف المسلمين العام وأصيب بالضحالة، ولكنه لم يصب بالعقم. لأن محاولات التجديد لم تغب عن الساحة إلاّ في عصور الانحطاط والظلام.

وبدأ المسلمون يتحسّسون طريق النهضة لمختلف قضاياهم، وفي مقدمة ذلك الاهتمام بتجديد علومهم، وجعلها مواكبة للعصر، مستجيبة لأحداثه مستفيدة من تقنياته ومناهجه وأساليبه.

وعلم الكلام يتبوّأ منزلة هامة في الخطط الإسلامية، لأن الأزمة التي تعانيها المجتمعات الإسلامية تتمثل في العقيدة بالدرجة الأولى على مستوى التصوّر ثمّ السّلوك. وهذه الأزمة التي أصابت شباب الأمة الإسلامية الذي يعاني فراغاً روحياً مردّها إلى أسباب كثيرة منها إفلاس النظم التعليمية والتربوية ذات المناهج العلمانية، والغزو الفكري للفلسفات المادية المعاصرة والتأثير الإعلامي للوسائل الإعلامية المتطورة التي جعلت العالم قرية صغيرة.

لذلك كان لزاماً على الباحثين في شؤون علم الكلام أن يعيدوا النظر في مناهجه وموضوعاته وطرائق طرحها وأساليب عرضها وليس من اليسير تجديد هذا العلم نظراً لما يتطلّبه من مراجعة عامة تعود به أحياناً إلى مصدره الأصلي القرآن والسنّة وتربطه أحياناً بما يجد من اكتشافات في ميدان التقدّم العلمي.

إن ما يريده المسلم المثقف عندما يتّجه بالسؤال إلى المتكلّم الحديث عن خالق الكون لا بدّ أن يكون متماشياً مع أساليب ونتائج العلوم التي توصّلت إلى أسرار الذرّة وغزت الفضاء، وكشفت عن سنن الكون وأسراره وظواهره ولا تزال تكشف ما يحيّر العقول، وإن السائل يريد جواباً يقوم على

استخدام المنطق السليم ويدعوه إلى الإيمان بربه إيماناً يقوم على الاقتناع لا على مجرد التسليم كما تفعل بعض الأساليب الكلامية إزاء كثير من القضايا.

أولاً: علم الكلام علم شرعي:

1 ـ الأدلة على ذلك من القرآن:

تأسس علم الكلام انطلاقاً من مبدأ أشار إليه القرآن الكريم يتمثل في الدعوة إلى الله بالحكمة والمجادلة بالتي هي أحسن. قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [سورة النحل، الآية: 125].

ولا سبيل إلى سلوك هذه الأساليب إلاّ بتأسيس علم له أصوله ومناهجه التي تؤهّل إلى شرح العقيدة ومناقشة الخصوم وصدّ هجومهم. ثمّ إن القرآن الكريم شرح العقيدة في الخالق ووصفه فأبلغ، وبيّن النبوة وتحدّث عن أخلاق الأنبياء ومميّزاتهم، وألمع إلى الآخرة وقدّم عليها الأدلّة، وأثار قضايا تتصل بالعقيدة وأجاب عليها بإشاراته البليغة ولمحاته الوضّاءة.

بيد أن القرآن لم يكتف بذلك بل عرض لأهم الأديان والمذاهب والنِحل التي كانت سائدة في عهد النبوة الخاتمة فناقش عقائدها وأبطل حججها وأظهر انحرافها، فتحدث عن نحل أنكرت الأديان وآمنت بالدهر وأسندت إليه الخلق: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾ [سورة الجاثية، الآية: 24].

وفصّل كتاب الله الحديث عن الشرك فذكر من عبد الكواكب وأشركها مع الله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [سورة الأنعام، الآية: 76]. وردّ على الثنوية فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ﴾ [سورة الأنبياء، الآية: 22]. وناقش النصارى في تأليههم لعيسى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة آل عمران، الآية: 59]. وفضح عقيدة اليهود وتشبيههم وأظهر شذوذ فطرتهم قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ [سورة المائدة، الآية: 64].

وردّ على من أنكر النبوات عموماً ونبوّة محمد ﷺ خصوصاً قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [سورة الحجّ، الآية: 75].

لذلك صار لزاماً على علماء الإسلام المهتمّين بهذه القضايا أن يبسطوا القول فيما أشار إليه القرآن، ويردّوا على المخالفين، ويتوسّعوا في الدفاع توسّع المخالفين في الهجوم، ويجدّدوا في الرّدّ كلّما جدّد المخالفون الحجج في الطعن[1].

2 ـ موقف أئمة المسلمين من هذا العلم:

اختلف علماء الأمة الإسلامية حول أهمية هذا العلم. فهناك من العلماء من امتدحه، واستحسن الخوض فيه. وهناك من ذمّه وسكت عن القول في موضوعاته. يأتي في مقدمة هؤلاء الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه الذي ألّف في علم الكلام: «الفقه الأكبر» ورسائل صغيرة «كالوصية» ليوسف بن خالد «والفقه الأبسط» و «العالم والمتعلّم» وكتاب «العلم» قال أبو حنيفة رضي الله عنه: «الفقه في الدين أفضل من الفقه في العلم، لأن الفقه في الدين أصل والفقه في العلم فرع، وفضل الأصل على الفرع معلوم»[2].

ويحدثنا القاضي عياض عن رسالة ألّفها مالك بن أنس «لابن وهب في القدر والرّدّ على القدرية»، وقد وصفها عياض بأنها من «خيار الكتب الدالة على سعة علم مالك» وقد بلور مالك اتّجاه عقيدة السّلف القائم على مقاومة البدع وكان يرفض الرد العقلي على البدع، لأنه في رأيه ردّ بدعة ببدعة ويرى ضرورة الرد عليها بالنقل.

كما ردّ على الروافض فقال فيهم: «أهل الأهواء كلهم كفّار وأسوأهم الروافض». وكان مالكاً معاصراً نشأة الاعتزال عند واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، وقد أكّد على التنزيه في الصفات ونصح بالابتعاد عن التأويل لأنّ طريق النجاة ينبغي فيه إمرار النصوص كما جاءت. وكان يقول: «إنما أهلك الناس

(1) أحمد أمين: ضحى الإسلام: 2/ 3.

(2) الفقه الأكبر: ص 6.

تأويل ما لا يعلمون».

وله آراء في الإيمان والكلام والعلم وآراء كلامية شائعة كرأيه في الآية : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه، الآية: 5]. فقد قال فيها: «الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة» وبالرغم من هذا الموقف الحذر فقد مثّل مذهب المفوضة دون أن يقع في التشبيه أو التجسيم وقد روت بعض المراجع أنّه ردّ على القدرية، وبذلك يكون قد مثّل مذهباً كلامياً متكاملاً يشتمل على شرح المتشابه، وتوضيح القضايا الشائكة ثم الرّدّ على المخالفين كالقدرية وغيرهم.

ويعتبر الإمام أحمد بن حنبل الرافض الحقيقي لعلم الكلام على المنهج الاعتزالي، فقد رفض الحوار مع ابن أبي دؤاد حول قضية خلق القرآن. ولكن هناك رسالة منسوبة إليه بعنوان الرد على الجهمية. فإذا ثبتت فإنه يكون قد اشتغل بالرّدّ على المنحرفين والمبتدعة من أهل الأهواء، وفي الاضطلاع بهذه المهمة خير دليل على شرعية هذا العلم.

وأما الأشعري فقد كتب رسالة أكّد فيها: «استحسان الخوض في الكلام» وأثبت شرعية الأدلّة العقلية في الاستدلال على العقائد الإيمانية يقول في هذا الشأن: «أمّا بعد فإن طائفة من الناس جعلوا الجهل رأس مالهم، وثقل عليهم النظر والبحث عن الدين، ومالوا إلى التخفيف والتقليد وطعنوا على من فتش عن أصول الدين ونسبوه إلى الضلال، وزعموا أنّ الكلام في الحركة والسكون والجسم والعرض والأكوان والجزء والطفرة وصفات الباري عزّ وجلّ بدعة وضلالة، وقالوا لو كان ذلك هدى ورشاد لتكلّم فيه النبيّ ﷺ وخلفاؤه وأصحابه. قالوا: ولأن النبيّ ﷺ لم يمت حتى تكلم في كلّ ما يحتاج إليه من أصول الدين وبيّنه بياناً شافياً ولم يترك لأحد مقالاً فيما للمسلمين إليه من حاجة من أمور دينهم وباعدهم عن سخطه، فلما لم يرد عنه الكلام في شيء مما ذكرنا علماً أنّ الكلام فيه بدعة، والبحث ضلالة لأنّه لو كان خيراً لما فاته النبيّ وأصحابه ولتكلّموا فيه»[3].

(3) الأشعري: رسالة في استحسان الخوض في الكلام ص 6.

وهناك مؤلفات تذمّ الكلام والمشتغلين به من ذلك كتاب: «ذم الكلام وأهله» لشيخ الإسلام أبي إسماعيل عبد اللّه بن محمد الأنصاري الهروي المتوفى (481هـ).

- وكتاب «إلجام العوام عن علم الكلام» لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي (505هـ).

- وكتاب «صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام» لجلال الدين السيوطي (911هـ).

- وفي كتاب: «مختصر جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (ت 463هـ) ذمّ الكلام وأهله من ذلك:

«ما روي عن مصعب بن عبد اللّه الزبيري قال كان مالك بن أنس يقول: «الكلام في الدين أكرهه ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه، نحو الكلام في رأي جهم والقدر وما أشبه ذلك، ولا أحب الكلام إلاّ فيما تحته عمل. قال أبو عمر: قد بيّن مالك رحمه الله أن الكلام فيما تحته عمل هو المباح عنده وعند أهل بلده، فيعني العلماء منهم رضي الله عنهم، وأخبر أنّ الكلام في الدين نحو قول جهم في القدر والذي قال به مالك رحمة الله عليه جماعة الفقهاء والعلماء قديماً وحديثاً من أهل الحديث والفتوى». وإنّما خالف ذلك أهل البدع كالمعتزلة وسائر الفرق. وأما الجماعة فعلى ما قال مالك رحمه الله إلاّ أنّ يضطر أحد إلى الكلام فلا يسعه السكوت إذا طمع بردّ الباطل وصرف صاحبه عن مذهبه أو خشي ضلال عامة أو نحو هذا»[4]. وهذا النص واضح لا ذمّ فيه للكلام بإطلاق بل الذّمّ منحصر في الآراء المنحرفة ومناقشة القضايا الكلامية المعقّدة التي لا طائل من وراء بحثها. وفي النص إشارة إلى عدم السكوت عندما يجب الكلام كتقويم انحراف أو ردّ شبهة أو بيان حجة مقنعة، أو توضيح دليل شاف كاف.

- وفي عنوان الغزالي «إلجام العوام... عن علم الكلام» مقصد ينحصر في منع العوامّ عن الخوض في ترتيب المقدمات وتبويب النتائج التي يعجز

(4) المصدر السابق ص 155.

عنها ذهن العامي وتثير شكوكه، وتدخل الريب على نفسه أكثر من اليقين.

وأما قول ابن خلدون «بأنّ علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا. والأئمّة من أهل السنّة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودوّنوا، والأدلّة العقلية إنما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا، وأمّا الآن فلم يبق منها إلا كلام تنزّه الباري عن إيهاماته وإطلاقه»[5] وهذا القول لابن خلدون إن صلح لعهده فلن يصلح لعهدنا لسببين:

أ ـ إنّ الملاحدة والمبتدعة قد ملؤوا علينا الساحة الإسلامية وغزونا داخلياً وخارجيّاً غزواً فكرياً عاتياً، ونحن أحوج ما نكون إلى حصانة فكرية، ولا سبيل لنا إلى ذلك إلا بتجديد أُسس علم الكلام.

ب ـ مدوّنات أهل السنّة ضخمة، وكتاباتهم جيّدة بيد أن تلك الأدلة المدونة ينبغي أن تخضع إلى سنة التطور: «سنّة الله في خلقه ولن تجد لسنّة الله تبديلاً». فمضامينها إن صلحت لعصرهم فلا تصلح لعصرنا.

3 ـ التوفيق بين الاتجاهين:

وإذا تدّبرنا الاتّجاهين الأوّل الذي يمدح علم الكلام ويجعله علماً شرعيّاً للدور الذي اضطلع به من ترسيخ للعقيدة والدفاع عنها أو نقض حجج أعدائها بالأدلة القاطعة والبراهين الدّامغة. والثاني الذي يذمّ هذا العلم، ويعرض عن الخوض في مسائله، فإنه لا تناقض بين الاتجاهين لأنّ الأوّل يمدح ما صلح من علم الكلام، والثاني يذمّ جانب علم الكلام الذي خاض في البدع والأهواء ومال مع الانحراف وأغرق في القضايا الشائكة التي تستعصي على أفهام العامة وعقولها التي تحتاج إلى ضرب من الهدي القرآني والنبوي فذلك أجدى لها وأكثر إفادة من الإغراق في مسائل فلسفية جدلية معقّدة.

---

(5) المقدمة: ص 431 (ط. دار الشعب، القاهرة).

ثانياً: تسمية علم الكلام وتعريفاته ووظائفه:

1 ـ تسمية علم الكلام:

تتعرّض تسمية علم الكلام إلى الانتقاص، ولعل بعضهم يتجاوز ذلك إلى الحطّ من قيمته، والاستخفاف بأساليبه، والاستهانة بتحصيله، ومردّ ذلك إلى الحملة التي تعرض لها قديماً، وغذّتها بعض التيارات الحديثة تقليداً وجهلاً بالمهمة الخطيرة التي ينبغي أن يتبوءها في عصرنا، هذا العلم الذي ينافح عن العقيدة الإسلامية بمناهج وأساليب، نحن المسلمين في أشدّ الحاجة إلى إحيائها وتطويرها وصقلها وتهذيبها حتى تكون مواكبة لعصرنا. إنّ تسمية علم الكلام بهذه التسمية هي التي طغت عليه منذ نشوئه وقد علّل التفتازاني[6]، ذلك فقال لأنّ مباحث هذا العلم وموضوعاته تعنون بقولهم «الكلام في كذا»، أو لأنّ مسألة «كلام الله» كانت أشهر المباحث وأكثر المسائل التي دار حولها الجدال والنزاع بين المعتزلة من جهة وأهل الحديث بزعامة أحمد بن حنبل من جهة أخرى.

أو لأنّه سمي بهذا الاسم لما يورّثه من قدرة على الكلام في كشف الشبهات وإلزام الخصوم كالمنطق للفلسفة الذي يجعل الفيلسوف بارعاً في الاستدلال، فكذلك المتكلّم يبرع في البرهنة وإقامة الحجّة ودفع الشبهة. أو لأنّه أول ما يجب من العلوم التي تعلّم وتتعلّم بالكلام فأطلق اسم الكلام لذلك ثم خصّ به، ولم يطلق على غيره تمييزاً له.

أو لعلّه سمّي بهذا الاسم «علم الكلام» لأنّه يتحقق بالمباحثة وإدارة الكلام من الجانبين وغيره من العلوم قد يتحقّق بالتأمّل ومطالعة الكتب.

أو لعلّه سمّي بهذا الاسم لشدّة افتقاره إلى الكلام مع المخالفين والرد عليهم أثناء الاختلاف معهم ولعلّ السلاح الأكثر استعمالاً في هذا الميدان المناظرة.

أو لعلّه سمي بهذا الاسم لقوة أدلّته ووضوح حجته، حتى صار كأنّه هو

---

(6) التفتازاني: شرح العقائد النسفية: مكتبة المثنى. ص 15.

الكلام دون ما عداه من العلوم كما يقال للأقوى من الكلامين هذا هو الكلام.

ويذهب التفتازاني[7] بعيداً فيقول لعلّه سمّي بهذا الاسم الكلام المشتق من الكلم وهو الجرح فكأنّ أدلّته القطعيّة وحججه الساطعة تحدث تأثيراً في القلب وتتغلغل فيه كأنها جرح.

ومن التسميات التي تطلق على هذا العلم تسميته «بعلم أصول الدين» أي التعلّم الذي ينصرف إلى البحث في المسائل الأصوليّة كالعقائد الأساسيّة ونحوها تمييزاً له عن علم الفقه الذي تتّجه عنايته إلى الفروع وعن علم أصول الفقه الذي يهتمّ بالنظر في الأدلّة الشرعية من حيث تستنبط منها الأحكام والتكاليف.

ومن تسمياته أيضاً تسميته بعلم التوحيد أو بعلم التوحيد والصّفات وقد لازمته هذه التسمية الأخيرة لمّا انحصر دور هذا العلم في الجانب التعليمي الجاف، وتخلّى عن دوره في ردّ الشبهات ونقض حجج المخالفين، وطغى عليه المنطق الأرسطي الذي نبذته المدرسة الكلاميّة الأولى وهاجمته جميع الفرق الإسلامية وسائر الطوائف من أهل النظر الذين عابوه لاختلاطه بالعلم الإلهي عند أرسطو الذي يناقض أوليات العقيدة الإسلامية. ومنذ طغيان المنطق الأرسطي على هذا العلم يمكن القول بأنّ الفكر الإسلاميّ لم يأت بجديد مبتكر في عالم الفكر الأصيل بل كل ما حدث هو كما قال الإمام محمد عبده «تحاور في الألفاظ وتناظر في الأساليب، على أنّ ذلك في قليل من الكتب اختارها الضعف وفضلها القعود»[8].

ومن تسميات هذا العلم تسميته بعلم النظر والاستدلال، وهي تسمية تقصر مهمته الأساسيّة في التأمّل وابتكار الأدلّة والتجديد فيها.

ومهما يكن من أمر فإنّ مراجعة تسمية هذا العلم لإزالة ما علق به من تراكم معرفي يحمل في طيّاته بعض الانتقاص لأمر متحتّم إن أردنا لهذا العلم

---

(7) المرجع ذاته.

(8) محمد عبده: رسالة التوحيد، ص 12.

أن تجدّد رسالته وأن يخصب عطاؤه ثمراً مفيداً كما كان ذلك في عهد إزدهار الحضارة الإسلاميّة.

2 ـ تعريفاته ووظائفه:

وأقدم التعريفات التي وصلتنا لهذا العلم تعريف أبي نصير الفارابي (ت 339هـ) الذي يقول فيه: صناعة الكلام يقتدر بها على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التي صرّح بها واضع الملّة، وتزييف كلّ ما خالفها بالأقاويل[9].

فعلم الكلام حسب هذا التعريف صناعة تحتاج إلى معرفة وعلم ومراس ومران. ولا بدّ لهذه الصناعة من قدرة على إظهار حجج المخالفين وتزييف كلّ مناقض وحمله على وجه يوافق ما في الدين. وقد عرفه الغزالي (505هـ) بقوله هو علم «مقصوده حفظ عقيدة أهل السنّة وحراستها من تشويش أهل البدعة، فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هي الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار، ثمّ ألقى الشياطين في وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنّة، فلهجوا بها وكادوا يشوّشون عقيدة الحقّ على أهلها، فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلّمين، وحرّك دواعيهم لنصرة السنّة بكلام مرتّب يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثة على خلاف السنّة المأثورة فمنه نشأ علم الكلام»[10].

وهو تعريف يؤكّد على الدّفاع عن عقيدة أهل السنّة لأنّ البدع قد ازدادت في عصر الغزالي والفرق الإسلامية وغيرها من الأديان قد ثبتت انحرافاتها فشوّشت العقيدة السّليمة المستمدّة من الأصول الإسلاميّة الكتاب والسنّة.

ويتّفق ابن خلدون مع الغزالي في تعريفه لهذا العلم اتّفاقاً يكاد يكون تامّاً فيقول «علم الكلام علم يتضمّن الحجج عن العقائد الإيمانيّة بالأدلّة العقليّة

---

(9) إحصاء العلوم: ص 71.

(10) المنقذ، ص 76.

والردّ على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنّة[11].

ويعرّفه الإيجي (756هـ) بقوله: «والكلام يقتدر معه على إثبات العقائد الدينيّة بإيراد الحجج ودفع الشبه، والمراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل، وبالدينيّة المنسوبة إلى دين محمد عليه السلام»[12].

وليس بعيداً عن هذا التعريف ما ذهب إليه التهانوي من أنّ علم الكلام هو علم يقتدر منه على إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج ودفع الشبه[13].

لقد صارت وظيفة علم الكلام أشمل إذ أصبحت أداة دفاع لكلّ معتقد عن عقيدته، فدفاع المبتدع عن عقيدته بالبراهين العقلية كلام أيضاً[14]. وصار دور هذا العلم تثبيت العقائد الدّينيّة والبرهنة عليها بالأدلّة المناسبة لكل عصر والحجج المواتية لكل زمان. أمّا دفع الشبه المثارة أو التي يتوقّع أن تثار فهي من أهمّ وظائف علم الكلام.

وهكذا فإنّ دور هذا العلم ينبغي أن يكون كما حدّده الإيجي بعلم العقيدة الإسلاميّة، ويرسّخها، ويدافع عنها ويردّ الشبه الوافدة عليها ويتصدّى للغزو الفكري بشتّى ضروبه وألوانه.

وبالرّغم من المنهج التعليميّ الذي اتّبعه الأستاذ «الإمام محمد عبده» (ت 1905) في رسالة التوحيد إلا أنّه أغفل الجانب الدفاعي عند تعريفه لهذا العلم، رغم الظّروف السياسيّة والاجتماعيّة التي كان الاستعمار يدمّرها ويبثّ الخراب فيها يقول محمد عبده معرّفاً علم الكلام بأنّ «التوحيد يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبّت من صفات، وما يجوز أن يوصف به، وما يجب أن ينفى عنه، وعن الرسل لإثبات رسالتهم، وما يجب أن يكونوا عليه، وما

---

(11) المقدمة: 3207.

(12) المواقف: 1/ 42.

(13) كشاف اصطلحات الفنون: 22.

(14) مصطفى عبد الرزّاق: تمهيد لتاريخ الفلسفة: 262.

يجوز أن ينسب إليهم، وما يمتنع أن يلحق بهم»[15]. والاتجاه العام الذي يندرج تحته تعريفات علم الكلام يتميز بالتأكيد على أمرين.

أ ـ الطابع التعليميّ لهذا العلم فهو ينهض بتوضيح العقيدة انطلاقاً من الكتاب والسنّة ويعمل على ترسيخها وفق منهج العصر.

ب ـ الطابع الدفاعي المتمثّل في الردّ على الانحراف والبدع من جهة، ودفع الشبه الوافدة بأسلوب علميّ دقيق بعيد عن الخطاب الفضفاض الذي لا يستند إلى براهين وحجج مقنعة.

هاتان الوظيفتان لعلم الكلام التعليميّة والدفاعيّة ليس بينهما توازن بل أحياناً تتغلّب الوظيفة الدفاعيّة كما هو الشأن في العصور الأولى، وقد تتغلّب الوظيفة التعليميّة كما هو الشّأن في عصور الانحطاط. وما زال العلماء يؤكدون على الوظيفتين معاً إلى العصور المتأخّرة يقول طاش كبرى زادة (ت 962هـ) عند تحديده لعلم الكلام: «هو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينيّة بإيراد الحجج ودفع الشبه».

ثالثاً: علم الكلام في مواجهة التحديات:

إنّ ديناً في مستوى ما بلغه الإسلام من الانتصارات في ظرف زمني وجيز، لخليق أن تواجهه صعوبات وعراقيل. فلقد أزال عروشاً، وقلب حكومات، وقضى على امتيازات لفئات وطبقات، وخلق قيماً جديدة في التعامل على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

هذا الدّين الذي جاء بموازين مخالفة لما عهدته البشرية، ليس من اليسير أن يجد الطريق ممهّدة بل واجه تحديات وفدت عليه في ميدان العقيدة خاصة وفي غيرها من الميادين عامة.

1 ـ تحديات الأمس:

أ ـ أصل الأصول في الأديان قضيّة الألوهيّة. وللإسلام طرحه الخاص

---

(15) رسالة التوحيد: 4.

بهذه القضية، أساسه التوحيد الخالص، والإعراض عما عداه من وجوه الاعتقاد.

ولهذه القضية اتجاهات معارضة للتصوّر الإسلاميّ يأتي في الصدارة اعتقاد الثنوية من السمنية والمانوية وغيرها في الألوهية. وقد عرف عن هذين الفرقتين ترويج لآرائهما، ونشاط كبير داخل العواصم الكبرى خاصة في بغداد وغيرها من حواضر العالم الإسلامي[16].

ولليهودية تصورات خاطئة عن قضية الألوهية، إذ الطابع الغالب على هذا التصور بشري في صفاته وأفعاله، والنصّ واضح في التّوراة «خلق الله آدم على صورته». والله في اليهوديّة يحزن ويبكي حتى ترمد عيناه، ويفرح ويصارع، بينما قدّم الإسلام تصوّراً تنزيهيّاً لله سبحانه، وعمّق فكرة التّوحيد الخالص في النفس، بل كل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك مخالفة تامّة لجميع الحوادث والمخلوقات.

وللمسيحيّة نشاط حثيث في مواجهة المسلمين يناظر قساوستها ويؤلفون الكتب ويجادلون المسلمين وغيرهم. وممّا زاد المسألة تشعّباً اختلاف طوائف المسيحية حول طبيعة المسيح. هذه القضيّة تسرّبت إلى العالم الإسلامي عن طريق المناظرات بين آباء الكنيسة وبين المسلمين حول طبيعة المسيح في القرآن قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة آل عمران، الآية: 59].

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ بل عمد بعض المسيحيّين إلى الدّخول مع المسلمين في الجدال حول طبيعة المسيح في القرآن. ووظّفوا على آيات الكتاب الكريم حواراً ليفسدوا اعتقاد المسلمين في الألوهية: قال يوحنّا الدمشقي: إذا سألك العربي ما تقول في المسيح؟ . . . فقل: «إنّه كلمة الله» ثم يسأل النصراني المسلم: بم سمّي المسيح في القرآن؟ وليرفض أن يتكلم بشيء حتى يجيبه المسلم. فإنّه سيضطر إلى أن يقول: ﴿ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ

(16) ابن النديم: الفهرست: 471 ـ 472.

مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ ﴾ [سورة النساء، الآية: 171].

ثمّ ليسأله عن كلمة الله وروحه، أمخلوقة هي أم غير مخلوقة؟ فإن قال مخلوقة فليرد عليه بأنّ الله كان ولم تكن كلمة وروح، فإن قلت ذلك فسيفحم العربي، لأنّ من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين[17].

ويوضّح توماس أرنولد الأمر إذ يقول: «هؤلاء الذين دخلوا كنف الدين، وحملوا معهم ثقافة الامبراطورية البيزنطية وثقافة اليونان... وهذه الانشقاقات الواسعة أفزعت السلطات الكنسية فشرعت تهاجم بالجدل والمناظرات أُسس العقيدة الإسلامية: ما هي الطبيعة الإلهية؟ ما معنى قولنا: «إنّه على كلّ شيء قدير». «وإنّه بكلّ شيء عليم» وما هي علاقة علمه بذات نفسه[18].

ويتجلّى من خلال الحوار في النص الأول والمرتّب على طريقة السؤال والجواب، والمتضمّن لقضايا تبحث في كنه الذّات أنّ ذلك كان تمهيداً لمشكلة من أكبر مشكلات العقيدة التي حدثت في العالم الإسلامي، وهي مشكلة خلق القرآن.

وأمّا النصّ الثّاني فيوضح في غير لبس كيف شرعت الكنيسة تهاجم عقيدة الألوهيّة بالجدال والمناظرة لبث البلبلة في أفكار المسلمين. بل لقد أورد ابن النديم أقوال قساوسة كانوا يهدفون إلى تنصير المسلمين[19].

ب ـ والأصل الثاني الذي وقف فيه المسلمون يواجهون التحدّيات قضية النبوة. وقد أشار القرآن إلى مقدمات هذه القضيّة تلميحاً عندما قال على لسان بعضهم: ﴿قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [سورة ،الإسراء الآية: 94]. وهناك تحدّ كان قد طرحه البراهمة جحدوا فيه الرسل، وأثبتوا التكليف من جهة العقول، وقالوا إنّ الحسن ما حسنه العقل، والقبيح ما قبّحه العقل وأفضل في تشريعه

(17) محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ج 1، ص 187.
(18) سير توماس أرنولد: تراث الإسلام، ص 363.
(19) ابن النديم: الفهرست: 180.

من الرسل الذين أباحوا ما حظّر العقل من ذبح البهائم وإيلام الحيوان بلا ذنب[20].

ونسب اليهود إلى الأنبياء نقائص تحطّ من مقام النبوّة فمنهم صفوة مختارة، وقادة الإنسانيّة، ونماذج رفيعة للخير، فكيف تصدر عنهم قبائح لا تليق بفرد عادي؟ كمضاجعة لوط لابنتيه بعد أن سقياه خمراً وإنجابه منهما، وكتنازل إبراهيم عن زوجته خشية على حياته من فرعون وقوله إنّها أخته.

هذه الفضائح التي ينسبها اليهود إلى أنبيائهم كانت تصكّ أسماع المسلمين لأنّ اليهود كانت تظلّلهم مظلّة الحكومة الإسلاميّة وتحميهم رغم اعتقاداتهم المنحرفة في النبوّة وغيرها.

وكتب أبو بكر الرازي الطبيب كتاب «مخاريق الأنبياء» تهجم فيه على النبوّة. هذه القضايا المتنوعة دفعت علماء الكلام أن يؤكّدوا على عصمة الأنبياء ويفردوا لها باباً خاصاً من أبحاثهم.

ج ـ وأما الأصل الثالث الذي واجه فيه علماء الكلام التحدّي فهو البعث، ونكرانه عام في جميع الأزمان ولم ينفرد به زمن دون آخر. ولقد أشار القرآن إلى رأي أقوام أنكروا الحشر والنشر عند قوله: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [سورة ،الجاثية الآية: 24]. والدهريّة مذهب مادّي ينكر الألوهية والنبوة والبعث وهو مذهب فارسي قديم ردّ عليه القرآن بمثل قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [سورة الأنبياء، الآية: 104]. وتوسّع علماء الكلام في هذه اللّمحات القرآنية ليكوّنوا ردّاً متكاملاً على مختلف النزعات المادية، في هذه القضيّة الشائكة التي زلّت فيها أقدام كثير من المفكّرين.

2 ـ تحدّيات اليوم:

إنّ التحدّيات التي تواجه العقيدة الإسلامية اليوم كثيرة وخطيرة، منها ما يعود إلى فلسفات قد ظهرت في هذا العصر، ومنها ما يعود إلى مواقف قد

(20) البغدادي: أصول الدين: 154.

وقفتها مؤسسات كالكنيسة وغيرها. فالكنيسة قد وقفت مواقف من العلماء مثل غاليلي وغردانو وكوبرنيك جعلت الناس ينظرون إليها نظرة ريبة. وبدأ المفكرون يهاجمونها، ويهاجمون من خلالها الأديان عموماً بل ويسخرون من معتنقيها يقول (فولتير في هذا المعنى 1788): إذا رأيت اثنين يتناقشان في موضوع ولا يفهم أحدهما الآخر، فاعلم أنّهما يتناقشان في الميتافيزيقا... إلى آخر هذه الموجة من السخرية.

وبالإضافة إلى ما تعمد إليه الكنيسة من العقائد التي تثقل بها كاهل أتباعها من المسيحيين ولا يخضع فيها إلى عقل ولا إلى منطق كصكّ الغفران وغيره من الأوامر التي لا يرضاها العقل ولا يقرّها المنطق. وثمّة أمر آخر خطير أدى إلى فقدان الثقة في الكنيسة هو تعاونها مع السلطة خاصة عند الاعتراف بالخطايا. إذ لم يتورّع بعض القساوسة من نقل أخبار المعارضين إلى حكوماتهم فتسبّب ذلك للمعارضين فيما تسبب من قتل وتشريد.

وحدثت أزمة ثقة بين الكنيسة وبين جماهيرها خاصة بينها وبين العلماء إذ لم يعودوا على ثقة بما تتحدّث عنه من الغيب وما تدعو إليه من عقائد عموماً. هذا التوتّر أدّى إلى تكوين مذاهب هدّامة، ما لبثت أن تسرّبت إلى العالم الإسلامي في أشكال شتّى وبأساليب مختلفة. كالدّعوة إلى الفصل بين الدّين والدّولة، ونكران الغيب، والمذاهب الوضعيّة والوجوديّة وغيرها من المذاهب التي تنتظم في سلك واحد هو الفلسفة الماديّة، التي أنكرت كلّ ما ليس بمادّة ويأتي في مقدّمة المذاهب:

أ ـ المذهب الوضعي:

مؤسّس هذا المذهب أقيست كونت (ت 1857) أنكر كلّ تفكير قبليّ، واستبعد البحث في الغايات القصوى والعلل الأولى، ولم يعترف بغير الواقع المحسوس يعالجه بمناهج البحث التجريبيّ. ويرى «كونت» أنّ العقل قد مرّ بثلاث مراحل: اللاهوتي والميتافيزيقي والواقعيّ. وهذه المراحل قد عبّر عنها بقانون الأطوار الثلاثة:

في الطّور الأوّل: كان العقل يبحث في كنه الموجودات وأصلها

ومصيرها، وكانت تفسيرات العقل للموضوعات بعيدة عن الطبيعة، وكان منهجه في ذلك قائماً على الخيال، فالظّواهر تحدث بفعل كائنات سامية تختفي وراء الطبيعة المرئية.

وفي الطّور الميتافيزيقي: يظلّ العقل يبحث كنه الأشياء وأصلها ومصيرها، ولكنه يرتقي فيتخلى عن الكائنات السامية غير المرئية، ويردّ الظواهر إلى علل مجردة خفيّة يتوهّمها.

وفي الطّور الثالث: يتجنّب العقل الطريقتين السالفتين في البحث موضوعاً ومنهجاً، ويعوّل على البحث في أصل الكون ومصيره وعلله، ويهتم بمعرفة الظواهر وكشف قوانينها، وبهذا يستغني عن العلل بوضع القوانين أي العلاقات المطّردة بين الظواهر، ويقيمها على أساس من المشاهدة لا من الخيال ولا من الاستدلال، وبهذا يهتمّ بالإجابة عن السّؤال: كيف حدث؟ وليس عن السؤال: لماذا حدث؟ بهذا رفض المذهب الوضعيّ البحث في الغيب وأبى أن يقرّ حقائقه أو يرفضها. وتركّزت جهود أتباع كونت على النّزعة العلميّة التّجريبيّة وانصرفوا عن البحث في كنه الموجودات وحقيقتها إلى دراسة الظواهر نفسها فأسّسوا العلوم التجريبية على مقتضى هذا الاتجاه فتركّزت كتابات رينان في تاريخ الأديان (ت 1892)، ودوركايم (ت 1917) في علم الاجتماع، وليفي بريل (ت1939) في علم الأخلاق وجوبلو (ت 1935) في علم المنطق، وريبو (1916) في علم النفس وتين (1893) في علم الجمال.

ب ـ: مذاهب معاصرة:

وابتدع كلّ واحد من هؤلاء وغيرهم تفسيراً للدين: فرأى دوركايم الفيلسوف الفرنسي في الدّين أنّه مؤسّسة اجتماعيّة اختلقها المجتمع وابتدع لها نواميس وسنناً. ورأى علماء النّفس أنّ الدّين نتاج اللاشعور الإنساني وليس انكشافاً لواقع خارجي.

وترى الشيوعيّة أنّ العوامل الاقتصاديّة هي التي خلقت الدّين، والدّين أفيون الشعوب وهو خديعة تاريخيّة ابتكرتها الطبقة البورجوازيّة للاستيلاء على جهد الطبقات الكادحة وثرواتها.

وترى الوجوديّة أنّ الإنسان هو الذي خلق الله ولم يخلق الله الإنسان. وفسّرت نظريّة التطور الخلق بشكل بدا للكثيرين أنّه مخالف لما جاء به الدّين.

هذه الفلسفات قد غزت العالم الإسلامي وتحدّت عقيدته بالرغم من أنّها لم ترق إلى مستوى الحقائق العلميّة. ولم تبلغ إلى مستوى المقولات الفلسفيّة. فقانون الأطوار الثلاثة عند «كونت» أقرب إلى التفكير الفلسفي الميتافيزيقي منه إلى باب العلم الوضعيّ. هذا إلى جانب خطئه الذي يشهد به استقراء التاريخ.

فالتّجربة تشهد بأنّ الأدوار الثّلاثة قد توجد في الفرد الواحد والجماعة الواحدة مقترنة بعضها ببعضها، فقد يقبل الفرد أو الجماعة تفسيرات لاهوتيّة أو ميتافيزيقيّة في بعض المشاكل التي تواجهه مع اعتقاده بالعلم الوضعيّ الواقعيّ ونتائجه.

والملاحظ أنّ الطّور الأوّل الذي يقولون إنّه يتمثّل في عصر ما قبل التّاريخ وبدء التّاريخ قد اخترعت فيه صناعات عن طريق المشاهدة ومعرفة طبائع الأشياء، وفي الطّور الفلسفيّ الذي يقال إنه شمل العصور القديمة قد وجدت فيه مشاهدات فلكيّة ومدنيّات شرقيّة.

وعرفت هندسة إقليدس وطبّ أبقراط وطبيعيّات أرسطو وكيمياء المسلمين وطبّهم. وفي الطّور الوضعيّ الذي يقال إنّه يتجلّى في العصور الحديثة وجد كثرة من دعاة الأخلاق والدين والتّأمّل. وإذن فليس في تاريخ العقل البشري ما يثبت أنّ مرحلة التفكير الفلسفي تسبق مرحلة التفكير العلمي.

3 ـ أساليب التحدي:

يمتاز كل عصر بأساليبه وطرقه ومناهجه التي يروّج بها فلسفاته ومذاهبه ويعمل على نشرها وبثّها بين الناس. فالقدامى من المتكلمين قد مهروا في بثّ دعاتهم لتلقين عقائدهم قال الشاعر يصف دعاة المعتزلة:

دعـاة لا يـفـلّ عـزيـمـهـم تهكّم جبّار ولا كيد ماكر

وعقد أصحاب المذاهب المناظرات لإفحام خصومهم. وألّفوا المؤلّفات

التي تدافع عن مقولاتهم وتشرح أصولهم. وإذا كان القدامى قد مهروا في هذه الأساليب فإنّ عصرنا يشهد ثورة إعلاميّة لم تشهد الإنسانيّة مثيلاً لها. فلقد صار العالم قرية صغيرة بل غرفة إلكترونيّة.

لذلك فالغزو الفكريّ مسلّط على العالم الإسلامي لتكريس التبعية الاقتصاديّة والثقافيّة، ولتحطيم الإنسان المسلم من الداخل والخارج. فهناك أساليب الدعاية الشيوعيّة تمارس داخل مجتمعاتنا وهناك المذاهب الهدّامة والدعوات الماكرة التي تطمح إلى إفراغ العالم الإسلاميّ وإخلائه من مثله العليا، وإحلال بدائل بعيدة عن روح الإسلام السّامية. فالصّهيونيّة تحارب المقدّسات وتدوس القِيَم وتروّج الإلحاد وغيرها كثير من الفلسفات الهدّامة والفرق المنحرفة. والكنيسة تنفق بسخاء على التنصير في كافة أرجاء المعمورة، وخاصة داخل العالم الإسلامي. وهناك أبناء المسلمين يتمذهبون بمذاهب هدّامة كالوجوديّة والوضعيّة والتطوّريّة والعلمانيّة ويتمسّكون بها ولها يدعون.

خلاصة القضيّة: غزو مدمّر وتحدّ صارخ في صور شتّى قد وفد على الأمّة الإسلاميّة يحارب مقدّساتها ويضعف قيمها.

رابعاً ـ ثقافة المتكلم لمواجهة التحدّي:

1 ـ الإمكانات الفكرية:

يحتاج المتصدي للإلمام بعلم الكلام في ثوبه الجديد إلى مواهب تجعله قادراً على القيام بأعباء هذا العلم. أرأيت الاختصاصات العلمية الدقيقة لا يوجّه إليها من الطلبة إلاّ من امتاز بمميزات معيّنة، فكذلك هذا العلم من بين العلوم الشرعية لا نغري به الطلبة إلا من كانت له إمكانيات ذهنية، تؤهّله للقيام بأعباء هذه المهمّة المنتظرة من خلال هذا العلم.

والأمثلة جليّة في مسار هذا العلم، فلن تجد متكلماً في أصول الدين إلا وضرب به المثل في الذكاء الحاد وسرعة البديهة، والثقافة المعمّقة وغزارة الإنتاج الفكري.

فالإمام أبو الحسن الأشعري ألّف في «مقالات الإسلاميين» الجليّ منها والخفيّ، وبرهن في اللّمع على قضايا العقيدة. والجويني ألّف في القضايا الأصولية وكان كتابه «الشامل» لمختلف المسائل الاعتقادية. والغزالي في غزارة إنتاجه الفكري، والبيضاوي في تفسيره وكتابه «الطوالع» والشهرستاني في «الملل» و «نهاية الإقدام»، والإيجي في كتبه خاصة «المواقف» كلّ هؤلاء خير من يمثّل الثقافة الإسلاميّة الشموليّة.

وقد امتاز بهذه المميزات علماء أصول الدين في العصر الحديث أمثال جمال الدين الأفغاني في رسالة «الردّ على الدّهريين»، والشيخ محمد عبده في مؤلفاته خاصة «رسالة التوحيد» و «شرح العقائد العضدية».

وزعماء الإصلاح في أطوار التاريخ الإسلامي كان لهم اهتمام بعلم أصول الدين ونظرات فيه قبل أن ينطلقوا في دعواتهم الإصلاحيّة، فكان الأرضيّة الصلبة والمنطق الحقيقيّ لحركات الإصلاح.

2 ـ الثقافة الموسوعية:

لا غنى لمن أراد الاشتغال بعلم العقيدة من الإلمام بثقافة موسوعيّة تشمل ما يسمى بعلوم المقاصد وعلوم الوسائل من العلوم الإسلاميّة والعلوم الكونيّة وغيرها من العلوم الدقيقة.

3 ـ ثقافة قرآنيّة:

وتتبوّأ منزلة الصدارة الاهتمام بالقرآن وعلومه حفظاً وعلماً حتى يتمكن من الاستشهاد به عند الحاجة. وينبغي عليه أن يفرد آيات العقيدة بالفهم والحفظ والتحليل والتبويب حتى يحسن الرّبط بينهما في المحور الواحد كمبحث الألوهية ومبحث النبوّة ومبحث البعث. كما هو الشأن في ضبط آيات الأحكام بستمائة آية خدمة للتشريع الإسلامي للربط بين أجزائه ولإدراك أسراره وخفاياه.

فآيات التوحيد، وآيات الخلق، وآيات العناية، والآيات التي تصف النبوة والأنبياء ينبغي استقراؤها جميعاً وتصنيفها كما ينبغي رصد آيات السنن الكونيّة والسنن التاريخيّة والاجتماعيّة.

وللإعجاز منزلة في علم العقيدة بألوانه المختلفة البيانيّ والغيبيّ والعلميّ. وقد كرّس العلماء جهودهم لبيان النوع الأول والثاني من الإعجاز. أمّا النوع الثالث من الإعجاز فهو اتجاه قد ازدادت العناية به لما ازدهرت الاكتشافات العلمية وظهر جليّاً للراسخين في العلوم أن لا تعارض بين الحقيقة العلميّة وبين الحقيقة الدينيّة، ويمكن أن تخدم الأولى الثانية. وقد مهر علماء هذا الفن أمثال سعيد حوى في كتابه «الله جلّ جلاله»، والدكتور محمد أحمد الغمراوي في كتابه «الإسلام في عصر العلم»، وعبد الرزّاق نوفل في كتابه «المسلمون والعلم الحديث». و «الله والعلم الحديث» و «القرآن والعلم» وغير هؤلاء كثير ممن ولع بهذا الفن في هذا العصر.

وأمّا أنواع الإعجاز البيانيّ والغيبيّ فقد ألّف فيها القدامى والمحدثون أمثال الجاحظ والرماني والخطابي والزملكاني وابن عطية والرازي والقاضي عياض والمراكشي والجرجاني والسكّاكي والتوحيدي والأصبهاني وغيرهم. وقد طبعت بعض هذه الكتب مثل رسائل في «إعجاز القرآن» للرماني والخطابي والجرجاني. وكتابان للزملكاني هما «البرهان الكاشف» و «التبيان» تحقيق د. أحمد مطلوب وخديجة الحديثي. و «الشفا» للقاضي عياض و «البرهان» للزركشي، كما ذكر عمر ملاحويش في كتابه «تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية» آراء بعض العلماء في الإعجاز ولفت عبد اللّه دراز إلى ما في القرآن من أدلّة على صدقه في «النبأ العظيم». وقام سيّد قطب في «التصوير الفني» ومحمد مبارك في «صور أدبية من القرآن» بإظهار ما في البيان الربّاني من تصوير فنّي معجز ووجوه من الإعجاز متنوّعة.

4 ـ إلمامه بالسنّة:

تعتبر السنّة النبويّة المصدر الثاني لثقافة المتكلم في علم العقيدة، وهي أقوال وأفعال وتقريرات. والرّسول هو الحكمة العمليّة للوحيّ وهو المثال الحيّ الذي ابتعثه الله معلماً في حواره وشمائله. فقد أرشد إلى فنون الحكمة العمليّة والعلميّة والمصالح الدينيّة والدنيويّة، وهو فضلاً عن ذلك خاطب العقل وحارب الجهل وساوى بين الناس ووقف مع المستضعفين وقاوم الطغاة

المترفين وأخرج بشريعته وتعاليمه العالم من ظلمات التوحّش والهمجيّة إلى نور الحضارة والمدنيّة.

وقد ظهرت أحوال رسول الله ﷺ على صفات ترفض فيه العقول كلّ ريبة، وتدفع عنه كلّ شكّ. كما عرف بالسخاء والكرم والشجاعة ومكارم الأخلاق والرحمة بالخلق والإشفاق عليهم والصبر على الأذى ورفض الرئاسة والسيادة المعروضة عليه من قبل قومه نظير رجوعه عن دعوته.

هذه الصفات في شخص واحد معجزة وليست عبقرية لأنّ العبقريّة تتفوّق بصفة واحدة من الصفات، أمّا إذا كانت الذّات مجمع كمالات فذلك الأمر نبوّة. هذه الصفات فصلت القول فيها كتب «كأعلام النبوّة» لأبي الحسن الماوردي و «سيرة ابن هشام وشرحها» للسهيلي المسمى «الروض الأنف» و«إمتاع الأسماع» للمقريزي و «السيرة الحلبية». و «الشفا» للقاضي عياض. و«الشمائل المحمدية» للترمذي و «زاد المعاد في هدى خير العباد» لابن القيّم.

وأمّا السنّة القوليّة فمصادرها كتب الصحاح والمسانيد «كمسند الدارمي» و «موطأ مالك»، و «مسند أحمد»، وغير هذه الكتب كثير. بيد أن الإفادة من هذه الكتب يحتاج إلى مراس ودربة ينبغي على الباحث في شؤون العقيدة أن يكون على بيّنة منها حتى يتمكّن من تخريج الحديث تخريجاً علمياً يتّفق وصناعة الحديث والعلم بمصطلحه.

والإعجاز العلمي في الحديث النبويّ قد استقطب اهتمام العلماء إذ لقد حوت أحاديثه جوامع الكلم، وجواهر الحكم، وكنوز المعرفة، وأسرار الدين ودقائق التوجيه، وعميق التربية، وآيات البلاغة، ولا يستغني عالم العقيدة عن الرجوع إلى هذا المنهل الثّريّ ليستقي منه بقدر ما يدلّل على نبوة محمد ﷺ دلالة عقليّة تنضاف إلى آيات الإعجاز الأخرى فلا تدع شكّاً لشاكّ ولا ريبة لمرتاب.

5 ـ معرفته بالفقه وأصوله:

يشكّل الفقه وأصوله قاعدتين من أهم قواعد الثقافة الإسلاميّة. فالفقه

علم إسلامي محض. إنّه من هذه الناحية يشكّل إلى جانب علوم اللّغة العطاء الخالص للثقافة الإسلامية. وعندما تبرز أهمية الفقه في ثقافة المتكلم فليس من أجل الانخراط في عملية التنويه الذاتي السائد في الخطاب الإسلامي اليوم وقوفاً في وجه تحديات الغرب بل إنما نريد من وراء ذلك تأكيد الحقيقة التي تبرز قدرة الفقه استيعاب القضايا الحضارية والمشاكل الإنسانية المتشعّبة التي جدّت على الساحة الإسلامية.

وفي هذا أدلّة على قدرة العقل الإسلامي على الاستجابة للمقتضيات الحضاريّة، وتاريخ الفقه يزكّي هذه الحقيقة تمام التزكية.

وأهم ما في الفقه الإسلامي من أصالة وابتكار فضلاً عن أنّه يجسّم الجانب العمليّ من الشريعة الإسلاميّة فإنّه يجسّم جانبه المنهجيّ علم أصول الفقه. فهو ضروري للمتكلّم بل هو يمثّل قواعد المنهج التي ينبغي أن يتّبعها المجتهد ليستنبط الأحكام الشرعيّة الفرعيّة من أدلّتها الإجماليّة اليقينيّة.

والمتكلّم لا يحتاج إلى مستوى المجتهد، ولكن عليه أن يلمّ بهذه المسالك وأن يكون عارفاً بها.

6 ـ اطلاعه على المذاهب الهدّامة:

أ ـ المذاهب الهدّامة:

قضيّة المذاهب الهدّامة قضيّة قديمة، ولكنّها متجدّدة في كلّ عصر. لفت القرآن الكريم أنظار المسلمين إلى الدّعوات الضارة، والمذاهب الهدّامة، ووضع الأُسس الثابتة لمواجهة الشبهات، وكشف عن مخططات الاحتواء والتبعيّة، وتحريف الأصول الثابتة، ونبّه المسلمين إلى الحذر من متابعة غير المسلمين والتماس ما عندهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [سورة البقرة، الآية: 109] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: 100].

والمذاهب الهدّامة كالغنوص تقوم في مجموعها على فهم بشري، يشكّل

نظرية مختلطة من عدّة مذاهب وعقائد، ومعارضة لمفهوم الإسلام والتوحيد القائم على أساس الفطرة. وتتألّف الغنوصية من مذاهب متعدّدة كالمجوسيّة والزرادشتيّة والمانويّة والديصانيّة والمزدكيّة والمرقونيّة.

وقد أضاف ممن كتب في الردّ على الدهريين في العصور الحديثة كجمال الدين الأفغاني بعض المذاهب كالتفعيين والماديّين عامّة القائلين بأنّ لا إله والوجود مادّة.

والمذاهب الهدّامة منها ما هو سافر الهجومات يستهدف تدمير مقوّمات الإسلام، وضرب قيمه الأساسية. ومنها ما هو يستهدف ضرب الأديان عموماً كإنكار الخلق والقول بالصدفة في وجود العالم. ومذاهب هدّامة تنكر النبوات وترى الوحي ضرباً من الهستيريا أو هوساً قد تولّد عن اللاشعور. وفلسفات ترى أنّ الله لم يخلق الإنسان وإنّما الإنسان هو الذي خلق الله. وأخرى ترى أنّ الأديان مؤسّسة اجتماعيّة ابتكرها الإنسان هذا المخلوق الخاضع للمجتمع خضوعاً تامّاً بل كلّ شيء فيه وليد المجتمع خاصّة دينه وقيمه.

هذه المذاهب الفلسفيّة والتيارات الإلحاديّة المتنوّعة، يجب على عالم العقيدة الإلمام بأصولها ليحسن الرّدّ عليها ومناقشة مباديها، ودحض أفكارها دحضاً علمياً متمكّناً بعيداً عن الأسلوب الخطابي الذي لا يصلح لهذا المجال.

ب ـ الأديان المنحرفة:

إنّ اشتغال المسلمين بالأديان ومقارنتها كان مبكراً، فأسّسوا لذلك علم العقيدة، وهو يشمل في جانب منه مناقشة الأديان المخالفة من اليهوديّة والنصرانيّة وأديان الهند والصين والصابئة والمجوس عامّة.

فما هي المصادر التي أوردت هذه المناظرات؟ وما هو منهج علماء الإسلام في هذه المناظرات؟ إنّ الجهد عظيم قد بذله المتكلّمون لمواجهة التحدّيات الخارجيّة المتمثّلة في مناقشة الأديان المنحرفة.

وهؤلاء العلماء مثل النظام والإسكافي والعلاف والجاحظ والبلخي والكعبي والقاضي عبد الجبّار وأبي الوليد الباجي والقرطبي والخزرجي وأبي المعالي الجويني وأبي حامد الغزالي وأحمد بن إدريس القرافي الصنهاجي

(شهاب الدين ت 684) وأحمد بن تيمية وغيرهم كلّهم قد ناظروا أهل الأديان ودحضوا شبههم وفنّدوا افتراءاتهم. ولعلماء الإسلام منهج متميّز في الرّدّ على اليهود والنصارى بدءاً بالجاحظ في رسالته «الردّ على النصارى» مروراً بأبي يعقوب الكندي الفيلسوف في رسالته «حول إبطال التثليث النصراني» والنوبختي في كتابه «الآراء والديانات» الذي اقتبس منه المسعودي في «مروج الذهب» في هذا الموضوع وبالمسيحي (ت 420 هـ) في كتابه «درك البغية في وصف الأديان والعبادات» وبابن حزم في «الفصل». وبابن تيمية في «الجواب الصحيح»، وبالشهرستاني في الملل والنحل وبالبيروني (أبي الريحان) في «بيان ما للهند من مقولة» انتهاء بكتب من أسلم من المسيحيّين مثل «تحفة الأريب في الردّ على أهل الصليب» لأنسليمو تورميدا ونصر بن يحيى بن عيسى أبي سعيد المتطبّب في كتابه «النصيحة الإيمانية بفضح الملّة النصرانيّة».

ورغم أصالة هذا المنهج الذي سلكه المسلمون في نقد الأديان واجتهاداتهم في هدم الأديان المنحرفة ونقض أُسسها إلا أنّها لم تخل من النقد يقول ابن قتيبة (ت 270 هـ) في نقد رسالة الرّدّ على النصارى (ويعمل أي الجاحظ كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين، فإذا صار إلى الرّدّ عليهم تجوّز في الحجّة كأنّه إنّما يريد تنبيههم على ما لا يعرفون الضعفة من المسلمين)[21].

وخلاصة القضيّة أنّ الإلمام بالأديان والرّدّ عليها ومعرفة مناهج المسلمين في هذه الرّدود من ألزم الواجبات على الذين يتصدّون لتجديد علم العقيدة.

ج ـ الفرق المنشقّة:

كالبهائية وغيرها وهي تهدف إلى إسقاط فريضة الجهاد وتدعو إلى وحدة الأديان والأجناس والشعوب، وقد كشفت مخططات البهائية عن منهج كامل في هدم الإسلام.

وغير هذه الفرقة كثير ومنها ما هو أخطر على الإسلام. لذا يجب على

---

(21) تأويل مختلف الحديث: 60.

الباحث في شؤون العقيدة العلم بأصول هذه الفرق وبمناهجها المعتمدة ليحكم الرّدّ عليها ردّاً مقنعاً.

ـ مواكبته للثقافة العلمية:

المراد بالثقافة العلميّة التي يجب على عالم العقيدة تحصيلها ما يتعلّق منها بالعلوم الطبيعية كالكيمياء والفيزياء والرياضيات والفلك. وهي حقائق بيّنة لمن أحسن عرضها وتوظيفها لزرع العقيدة وترسيخ الإيمان.

وهذه الثقافة العلميّة ينبغي أن نقتصر منها على الثقافة الشائعة ولا نغرق فيها إغراقاً تنقلب فيها محاضرة العقيدة إلى محاضرة علميّة متخصصة.

وعالم العقيدة كالطبيب يتخيّر ما يتلاءم مع كلّ فرد عقليّاً ونفسيّاً واجتماعياً ويراعي الظروف والملابسات ويستغلّ المناسبات عندما يستشهد بالحقائق العلميّة.

هذه الحقائق التي أحدثت ثورة في عصرنا، فغيّرت العقليّات وعودتها على أساليب جديدة تقوم على أساس التجربة والملاحظة والتكميم والقياس والضبط الدقيق لكل ما يتعلّق بالظاهرة.

واستدلالنا اليوم على مسائل العقيدة ينبغي أن يأخذ في الاعتبار هذه العقليّة السائدة فيستجلي حقائق الدين بالأدلّة التي تطمئن الذهن الجديد وتوصيل التعاليم الإسلامية بأحدث أساليب الاستدلال الملائمة للعقل الجديد، لأنّ القضايا القائمة على أساس المسلمات المنطقيّة قد سقطت فلا شيء في العقل الحديث بمسلّم منطقيّاً إلا وله نقيض منطقيّ يمكن أن يتحمّله العقل. أمّا الحقائق العلميّة التجريبيّة فهي الدليل الذي لا يدفع.

لذلك صار من الضروريّ تطوير المناهج في علم العقيدة لإشباع رغبات متجددة في اليقين، تريد أن تؤسّس موقفها على أرض من المعرفة الجديدة التي اخترقت الآفاق، وقاست أبعاد النجوم، وتغلغلت في أسرار المادة حتى حطمتها واستخرجت منها طاقات لا حدود لها[22].

---

(22) مقدمة الإسلام يتحدى: 11 (الطبعة السادسة).

وما يريد المثقف في القرن العشرين عندما يسأل هذا السّؤال عن خالق الكون لا بدّ أن يكون متمشّياً مع أساليب ونتائج العلوم التي توصلت إلى أسرار الذرّة وغزت الفضاء وكشفت عن سنن الكون وأسراره وظواهره ولا تزال تكشف ما يحيّر العقول. إنّ السّائل يريد جواباً يقوم على استخدام المنطق السليم ويدعوه إلى الإيمان بربّه إيماناً يقوم على الاقتناع لا على مجرد التّسليم. وهكذا فإنّ الثقافة من أوكد أنواع الثقافات الذي يجب على عالم العقيدة أن يسلّم بها في مجالات المعرفة العلميّة وفي مختلف أنواع العلوم.

وقد كلف معاصرونا بمعرفة هذه الحقائق والتأليف فيها. ومن أنجع الأساليب الاعتدال في استعمالها وأن لا نسرف في التأويل لفائدتها وأن لا نتحكّم حتّى نلوي عنق اللفظ ليكون مواتياً للحقيقة العلميّة، فخير الأمور أوساطها وأعمق الحقائق تأثيراً ما أحسن استغلاله في تأييد الحقيقة الدينيّة، ومراعاة الزمان والمكان ومقتضيات الأحوال النفسيّة والاجتماعيّة.

خامساً ـ نموذج مبحث الألوهية:

قدم البحث في الألوهية:

إنّ البحث في وجود إله خالق مدبّر للكون، بحث قديم مغرق في القدم إلى آماده البعيدة النائية وإن اختلفت أشكاله على مرّ العصور، وتقاربت أساليبه وتقاربت أدلّته وبراهينه.

والإنسان منذ أصبح إنساناً واعياً شاعراً مجبول على حبّ التطلّع إلى ما وراء الغيب، ومفطور على الرّغبة في معرفة مبادىء الأشياء وغاياتها وفهم حقائق كلّ شيء منها، من أين جاء وكيف صار؟ وإلى أين ينتهي به المطاف؟.

وتحت تأثير هذه الفطرة والجبلة تطلع الإنسان إلى الكون ولم يتوان على التأمّل في أسراره، بمقدار ما يستوعبه عقله وتفكيره في كلّ دور من أدواره الحضاريّة على امتداد التاريخ وكان البحث في وجود خالق في مقدمة الأسرار التي حاول فهمها والتأمّل فيها.

ولمّا كان إدراك الإنسان وفهمه لحقائق الأشياء أوّل ما نشأ محدوداً لا

يتعدّى دائرة حياته البسيطة الضيّقة، ثمّ تطور وتقدّم على مرّ العصور تبعاً لتطوره وتقدّمه في ميادين المعرفة، فلا غرابة إذا ما رأينا موضوع الاعتقاد بالإله الخالق الموجد للكون متدرّجاً بمقدار تدرّج الإنسان في نموّه العقليّ والفكريّ في تاريخ تطوره البعيد والقريب.

فالحضارات الإنسانيّة والفلسفات عرفت الاستدلال على وجود الله تعالى. فلليونانيين على اختلاف مشاربهم أدلّة، وللغربيين مناهج في البرهنة المتنوعة منها ما هو مغرق في القدم ومنها ما هو حديث ولذلك قال برغسون: «قد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكن لم توجد قط جماعات بدون ديانة» ولعله من الحكمة القول: إنّه لم توجد قطّ حضارة بدون فلسفة إلهيّة تثبت وجود الله في الأعمّ الأغلب وينفي أفراد فيها على سبيل القلّة والشذوذ والانحراف الوجود الإلهي.

مناهج الاستدلال على وجود الله تعالى عند المتكلّمين والفلاسفة:

إنّ الاستدلال على مباحث العقيدة تجري مجرى الأدوية التي يعالج بها مرض القلوب، فالطبيب إن لم يكن حاذقاً مستعملاً للأدوية على قدر طاقة المريض كان إفساده بالدّواء أكثر من إصلاحه، وحينئذ يجب أن لا يكون استعمال هذه الأدلّة لجميع النّاس على وتيرة واحدة. بل على عالم العقيدة أن يتخيّر من هذه الأدلّة ما يزخر به واقع الحياة، وما يدور في عالم الناس من معارف وما وصلت إليه العلوم من اكتشافات.

لذلك نقد العلماء طرق الاستدلال إذا لم تستجب لمقتضيات العصر. وذلك ما فعله ابن رشد حين ثار على الأساليب التقليدية ودعا إلى الاستلهام من أدلّة القرآن وقد اشتهر بدليلي العناية والاختراع وذكر أنهما دليلان قرآنيان ونقد أدلّة المعتزلة والأشاعرة في مسائل العقيدة ونعتها بطغيان الطابع الجدلي وليس لهما هدف الإقناع[23] بل غايتها الجدل.

(23) ابن رشد: مناهج الأدلة: 152.

1 ـ منهج المتكلمين في الاستدلال على وجود الله:

وجمهور علماء الإسلام عابوا استدلال الفلاسفة والمتكلّمين المتّسمة بالطابع الجدليّ، وقالوا إنّ معرفة الله لا تتأتّى بالنظر في الجواهر والأغراض، وإن الذين فعلوا ذلك تكلّفوا ما لا يجب عليهم، وأصابوا من غامض العلم ما لا يقدر عليه العوام.

وهكذا فإنّ طرق المتكلّمين وأساليبهم وغموضها وتكلّفها واستعصاءها على فهم العوام أهمّ مطعن قد وجه إليها. وقد بيّن حجة الإسلام الغزالي مسالك المتكلّمين وضرب على ذلك مثالاً بحدوث العالم وحصرها في ثلاثة:

أ ـ طريقة السبر والتقسيم: وهو أن يحصر الموضوع في قسمين ثمّ يبطل أحدهما فيلزم منه ثبوت الآخر ومثاله: العالم إمّا حادث وإمّا قديم، ومحال أن يكون قديماً، فيلزم منه ثبوت الآخر.

ب ـ طريقة تقسيم الحجّة: كأن تقسّم الحجّة على مقدمتين وترتّبها على وجه مخصوص معروف في علم المنطق، فإذا سلّم بهما الخصم تثبت دعواك. ومثاله في التدليل على حدوث العالم: العالم لا يخلو عن الحادث وكلّ ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث. لأنّ الخصم إذا أقرّ بصحّة المقدمتين فلا يجوز له إنكار صحة الدعوى وبالتالي رفض النتيجة.

ج ـ الطريقة الثالثة: وهي أن لا تتعرض لإثبات دعواك، بل تترك موضوعك الذي ستستدلّ عليه جانباً، وتتجّه إلى بطلان دعوى الخصم، كأن تذكر أنّ القول بدعوى الخصم يفضي إلى محال وكلّ ما يفضي إلى محال فهو محال مثله.

ومبحث حدوث العالم يبرز بوضوح عقم مناهج الطرق الكلاميّة القديمة وهي وإن صلحت لعصورهم فهي لا تستجيب لمقتضيات عصرنا يقول أبو بكر الباقلاني الذي أقام بناء المذهب الأشعري على منهج استدلالي: «الموجودات كلها على ضربين: قديم أزلي، ومحدث لوجوده أول» وبعد أن يناقش فكرة القديم يقسم المحدثات إلى ثلاثة أقسام: جسم مؤلف، وجوهر منفرد، وعرض موجود بالأجسام والجواهر، ثم يبرهن على إثبات الحدوث لهذه

الأقسام، فيثبت بذلك حدوث العالم من موجود واحد قديم هو الله تعالى[24].

وأقوال متكلّمي الأشاعرة في إثبات حدوث العالم، لا تخرج عمّا أوردنا من كلام الباقلاني: فقد أفاد منه تلميذه إمام الحرمين أبو المعالي الجويني (478هـ) وأفاد من الجويني تلميذه حجّة الإسلام أبو حامد الغزالي (505هـ).

وأمّا الجويني فيعرف العالم بأنّه كلّ ما سوى الله تعالى: «والعالم هو الجواهر والأعراض والأكوان والأجسام وهي كلّها محدثة حسب أدلّة ناقشها ليثبت العلم من خلالها بالصانع على أساس التفرقة بين الممكن والواجب وهي التفرقة التي ستؤدي دوراً خطيراً عند الفلاسفة المسلمين[25].

وقد أورد نقد هذه الأدلّة غير واحد من المتكلّمين. نذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر النقد الذي وجهه أبو الخير الحسن بن سوار البغدادي المعروف بابن الخمّار. وأبان ضعفها، وعدم استنادها إلى مقدمات منطقيّة سليمة عند استقرائها وفحصها.

ولابن حزم منهج يغاير منهج متكلمي الأشاعرة في إثبات حدوث العالم يقول: «وإذا كان العالم ذا أول فلا بدّ ضرورة من أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها وهي: إمّا أن يكون أحدث ذاته، وإمّا أن يكون حدث بغير أن يحدثه غيره وبغير أن يحدث هو نفسه، وإمّا أن يكون أحدث غيره» وبعد أن يناقش الوجوه المختلفة ينتهي إلى القول: «لن يكون ثمّة ما يدعو لترجيح حالة على أخرى فلم يبق إذن إلا أن يكون أحدثه غيره وهو المطلوب»[26].

وركّز المعتزلة أدلّتهم في حدوث العالم على فكرة الوجود والعدم والمحدث وانتهوا في مباحث طويلة الذيل قليلة النيل على حدّ تعبير الغزالي إلى حدوث العالم أخطر المسائل التي عمل مفكرو الإسلام على إثباتها وناقش الغزالي شبه برقلس في قدم العالم، وردّ على الفلاسفة في شبههم المتعلّقة به وقال بأنّ وجود مرجّح ليس معناه أنّ الله كان عاجزاً ثمّ أصبح قادراً بل معناه

---

(24) التمهيد: 20.

(25) الإرشاد: 30.

(26) الفصل: 50.

أنّ العالم حدث بإرادة قديمة اقتضت وجوده في الوقت الذي وجد فيه[27].

وهكذا كما قال صاحب المواقف واصفاً مسلك المتكلمين في إثباته وجود الله تعالى بالتعدد والتنوع «قد علمت أنّ العالم إمّا جوهر أو عرض، وقد يستدلّ على إثبات الصانع بكلّ واحد منهما إمّا بإمكانه أو بحدوثه فهذه وجوه أربعة قد سلكها المتكلّمون»[28].

2 ـ صور من أدلّة وجود الله عند المتكلّمين:

إنّ الاستدلال على وجود الله من أهم مباحث العقيدة لأنّه الدعامة الأساسية التي يقوم عليها الدين، لذلك كان البحث فيها مغرقاً في القدم إلى آماده البعيدة وإن اختلفت أشكاله على مرّ العصور وتفاوتت أساليبه.

ورغم صفاء عقيدة التوحيد فإنّ الفكر الإسلاميّ خاض هذا المبحث وأطنب القول فيه، بالرّغم أنّ وجود الله لم يكن محلّ شك في يوم من الأيام لكثير من المجتمعات فهو حقيقة الحقائق التي ينبع منها كل ما في الوجود من حقائق.

وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه الواحد

وللمفكرين المسلمين في البرهنة على وجود الله مسالك مأثورة ومناهج مشهورة. فما من عالم إلا وجعل لهذا الموضوع مكاناً بارزاً في مباحثه في أصول العقيدة.

أ ـ دليل الأحوال المتضادّة:

وهو من أشهر الأدلّة استدلّ به إبراهيم بن سيار النظام على وجود الله يقول الخياط المعتزلي في هذا الشأن «وجدت الحرّ مضاداً للبرد، ووجدت الضدّين لا يجتمعان في موضع واحد من ذات أنفسهما، فعلمت أنّ لهما جامعاً وقاهراً قهرهما على خلاف شأنهما، وما جرى عليه القهر فضعيف

(27) تهافت الفلاسفة: 30.

(28) الإيجي: المواقف 2/ 7.

وضعفه دليل على حدوثه، وعلى أنّ محدثاً أحدثه ومخترعاً اخترعه»[29].

ونجد صدى لهذا الدليل عند الماتريدي ولعلّه متأثر فيه بفكر النظام المعتزلي يذكر أبو منصور أنّ: «الحركة والكون والحسن والقبح والاجتماع والافتراق، والزّيادة والنّقصان حقائق متضادة»[30] والعقل البشري لا يجوّز اجتماع الضدّين في موضع واحد من ذات أنفسهما لأنّ الطبائع المتضادّة من حقّها التدافع وفي ذلك التّفرق والتّبدّد والتّفاني فلا بدّ من جامع جمع هذه الأحوال وقاهر قهرها على ذلك وبغيره لا تتلاءم ولا تنسجم»[31].

وظاهرة التّكامل أو التّضاد التي استقرأها المتكلمون من المعتزلة وأهل السنّة من الماتريديّة يمكن أن تستغل استغلالاً علمياً، ويصير هذا الدّليل مواكباً لعصرنا مقنعاً لمختلف المستويات الفكريّة.

ب ـ دليل الجواهر والأعراض:

أو دليل الحدوث كان دليلاً شائعاً في أوساط المتكلمين استدلّ به النظام المعتزلي وإنّ رفض القول بالجزء الذي لا يتجزأ. واستدلّ به الأشعري وجعله البغدادي موضع أصل من أصول كتابه «أصول الدين»[32].

واعتبره الغزالي القطب الأول من أقطاب كتابه الاقتصاد في الاعتقاد[33] وعده الشهرستاني القاعدة الأولى من قواعد كتابه المعروف «نهاية الإقدام في علم الكلام»[34].

وبالرغم من هذه الشهرة فهو دليل قليل الإقناع مغرق في التفريعات كالجوهر الفرد والوجود والعدم ويشبهه:

---

(29) الانتصار: 46.

(30) التوحيد: 13 وص 113.

(31) ذاته ن. م.

(32) ص: 35.

(33) ص 94.

(34) ص 11.

دليل الأشياء الحيّة وغير الحيّة:

وفحواه أن ليس لأحد من الأحياء أن يدعي لنفسه القدم بل لو قال ذلك لعرف النّاس كذبه بالضرورة. ويمكن بناء هذا الدّليل على الصورة التالية: الأحياء حادثة، والأحياء تستعمل الأشياء غير الحيّة، فهذه الأشياء حادثة من باب الأولى.

ويضيف الماتريدي[35] أنّ هذه الموجودات تمتاز بخصائص لها صفة الحدوث، منها أنّها محتاجة إلى غيرها وعاجزة عن إصلاح ما فسد منها هذا إذا كانت حيّة، أمّا إذا كانت ميّتة فاحتياجها إلى غيرها أشدّ، فهي إذن أحق بالحدوث. وإذا تأمّلت هذا الدليل وجدته دليلاً سفسطائيّاً فاسداً يقول أحد الباحثين في هذا الشأن: «ليس المرء في حاجة إلى دراسة أساليب المنطق حتى يعلم بفطرته أنّه أمام دليل سفسطائي فاسد، أمّا إذا كان من هؤلاء الذين أفسد الجدل استعدادهم الطبيعي (يقصد المعتزلة والأشاعرة) فمن الممكن أن نستخدم معه منطق أرسطو لكن نبيّن له أنّنا نوجد أمام قياس من الشكل الثالث، وأن النتيجة الطبيعية له هي بعض الحادث يستخدم الأشياء غير الحيّة فأي صلة إذن بين هذه النتيجة وبين إثبات حدوث العالم في جميع أجزائه الحيّة وغير الحيّة»[36].

وهكذا يبدو أن الاستدلال على وجود الله منه ما يتّجه إلى البرهنة على وجود الله كدليل العناية الإلهيّة، ومظاهر الإتقان التي تشهد بوجود الصّانع، وبرهان الخلق والاختراع. ومنها ما يتّجه إلى البرهنة على الحدوث كدليل التغيّر ودليل تناهي العالم ودليل الحركة، بيد أنّ دليل الحدوث التي تعود الأدلّة في معظمها إليه له طابع قرآني. يقول البياضي الحنفي: إنّه برهان لطيف مأخوذ من مسلك الخليل عليه السلام حيث استدلّ قبل أن يجري عليه القلم بالظهور بعد أن لم يكن، والأفول بعد الطلوع وآثار العجز عن التدبير كما قال

---

(35) التوحيد: 1.

(36) مقدمة مناهج الأدلة لابن رشد: 20.

الإمام أبو منصور الماتريدي مستفهماً على سبيل الإنكار في قوله «هذا ربي» فإن حذف أداته مشهور قائلاً: «لا أحب الآفلين» أي لا أثني على الذي تتعاقب عليه الأحوال ويعتريه التغيير والزوال باستحقاق الربوبيّة، ولا أعطيه المحبّة التي لله واجب الوجود الذي يستحيل عليه الزيادة والنقصان والذهاب والإتيان»[37] وتابع عضد الدين الإيجي رأي الماتريديّة في قوله إنّه دليل مستوحى من ملاحظة إبراهيم عليه السلام للكواكب وما يطرأ عليها من تغير.

واستنتج من قوله تعالى: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ معنى الحدوث. فلم يحبّ إبراهيم عليه السلام هذه الكواكب فضلاً عن عبادتها لأنّ الآفل حادث. وما هو حادث فله مُحدث غيره فلا يكون مبدأ لجميع الحوادث، ولا يكون صانعاً للعالم، ولا يكون محبوباً للعقل وفي الآية أيضاً نفي لربوبية الجوهر فلهذا قيل باختصاص طريقته عليه السلام بحدوث الجواهر»[38].

نستنتج من خلال استقرائنا لأدلّة المتكلّمين إيغالاً في التجريد، ولعلّها بدت لنا كذلك لكونها غير مألوفة لدينا، وكانت مبذولة شائعة عندهم.

وبقيت كذلك مهجورة لم تواكب العصر، ولم تعد قادرة على مواجهة الإيديولوجيات الفلسفية المعاصرة. وبالرغم من انطلاق بعض هذه الأدلّة من القرآن إلاّ أنّه سرعان ما ابتعدت عن منهجه الذي يخاطب العقل والقلب بصفة تنسجم مع كل المستويات العقليّة. وقد صدرت دعوات من فلاسفة ومتكلمين تأمر بالاستلهام من أسلوب القرآن منهجاً وروحاً في الاستدلال على وجود الله سبحانه.

3 ـ لمحة عن الاستدلال على وجود الله عند الفلاسفة الإسلاميين:

سلك الفلاسفة الإسلاميون لإثبات وجود الله تعالى طريق الوجوب والإمكان، وقسّموا الموجودات إلى واجب وممكن بدلاً من قديم وحادث لأنّ فئة منهم لا تقول بحدوث العالم. فاستدلّ هؤلاء الفلاسفة بالإمكان بدل الحدوث، وقد لخّص صاحب المواقف هذا الاستدلال فقال: المسلك الثاني

---

(37) كمال الدين البياضي الحنفي: إشارات المرام من عبارات الإمام: 86.

(38) الإيجي: المواقف 3/ 3.

للحكماء وهو أنّ الموجودات إن كانت واجبة فذاك، وإن كانت ممكنة احتاجت إلى مؤثر ولا بدّ من الانتهاء إلى الواجب وإلا لزم الدور أو التسلسل وهو محال[39].

قالوا حد الحق «عند الكندي لا يدخل مع الكائنات تحت جنس أو ما يشبهه فإن لم يكن فهو مركب بل إنّ فوق الانقسام والكثرة وإنّه الآنية الحقّ التي لم تكن ليس ولا تكون ليس أبداً وهو العلّة الفاعلة التي لا علّة لها»[40].

وأما الفارابي فإنّه يقول: «لك أن تلحظ عالم الخلق فترى فيه أمارات الصنعة، ولك أن تعرض عنه، وتلحظ عالم الوجود المحض، وتعلم أنّه لا بدّ من موجود بالذات، وتعلم كيف ينبغي أن تكون عليه الموجودات بالذات. فإن اعتبرت عالم الخلق فأنت صاعد وإن اعتبرت عالم الموجودات فأنت نازل»[41].

ويقول ابن سينا: تأمّل كيف لم يحتج بياننا لثبوت الله تعالى ووحدانيته وبراءته من السّمات، إلى تأمّل لغير نفس الوجود، ولم يحتج إلى اعتبار من خلقه وفعله وإن كان ذلك دليلاً عليه، لكن هذا الباب أوثق وأشرف أي إذا اعتبرنا حال الوجود فيشهد به من حيث هو موجود وهو يشهد بعد ذلك على سائر ما بعده في الوجود. وإلى مثل هذا أشير في الكتاب الإلهي: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [سورة فصلت، الآية: 53][42].

أقول إنّ هذا حكم لقوم، ثمّ يقول في الكتاب الإلهي: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة فصلت، الآية: 53]. أقول هذا الحكم للصديقين الذين يستشهدون به لا عليه[43].

---

(39) الإيجي: 8.

(40) رسائل الكندي الفلسفية: تحقيق د. محمد عبد الهادي أبو ريدة، ص 215.

(41) الفارابي: فصوص الحكم: 139.

(42) ابن سينا: الإشارات ج 1، ص 214.

(43) ابن سينا: نفس المرجع السابق.

والملاحظ في هذين النصين:

اعتبار الكون طريقاً ثانياً للاستدلال وهو المعبّر عنه بالطريق الصاعد. بينما الأسلوب المعوّل عليه في الاستدلال هو التأمل في الكون، وهو أوضح الأساليب، غير أنّ الفارابي وابن سينا يعتبران أنّ عالم الوجود المحض أو الطريق النازل أشرف الأدلّة وأوثقها. وهكذا يتّضح أنّ الفكرة العامّة حول مفهوم الذات الإلهيّة والاستدلال عليها فكرة تجريديّة، قد أوغلت في النظر حتى صارت مهجورة.

4 ـ نقد المتكلمين للأدلّة التي استدّلوا بها:

أصدر علماء الكلام أحكاماً قيّموا بها ما أنتجوه من براهين في الاستدلال على مباحث العقيدة. لكن اللافت للنظر أنّ هناك آراء فيها حسرة على الاشتغال بهذا العلم بل فيها ندم على ما فرط منهم من إغراق في الجدل. فلقد أورد السبكي في طبقات الشافعية عن الجويني ما نصّه: «لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أنّ الكلام يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به»[44].

وتجربة الغزالي مع الطرق الكلاميّة أشهر من أن نقف عندها إذ جرّبها فوجدها وافية بمقصودها غير وافية بمقصوده فسلك مسلك الصوفيّة وارتضاها أفضل الطرق لمعرفة الله[45].

ولفخر الدين الرّازي وصية أملاها في مرض موته نصح فيها بالابتعاد عن الطّرق الكلاميّة في الاستدلال على مباحث العقائد والعود إلى منهج القرآن في استدلاله لأنّه أقوم المناهج وأشرفها[46].

وللشهرستاني وغيره آراء تنصح بالرجوع إلى أساليب القرآن في بناء العقيدة الإسلاميّة. فما هو المنهج الذي سلكه القرآن في بحث العقيدة؟.

---

(44) ابن السبكي: طبقات الشافعية 3/ 260.

(45) المنقذ من الضلال: 20.

(46) زركان: آراء الرازي الكلامية. ص 90.

سادساً: اتجاه معاصر نحو علم الكلام القرآني:

لم يكن القرآن الكريم كتاباً في علم الكلام ذكر الحجج والبراهين لكلّ باب من أبواب العقائد. وإنّما هو كتاب عقيدة وهداية رسم منهج الحياة الإسلاميّة اجتماعيّاً واقتصاديّاً وسياسيّاً. وخطّ مسلكاً فريداً في العبادات والمعاملات والأخلاق. ورتّب كلّ ذلك وفصّله بإحكام وإتقان ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سورة فصلت، الآية: 3 ـ 4].

1 ـ منهج القرآن في العقيدة:

وفصّل القرآن مسائل العقيدة التي أخبر بها تفصيلاً متميزاً، وأشار إليها إشارات بليغة، ووقف عند بعضها الآخر طويلاً في مواضع مختلفة من سوره وآياته. وقد اشتمل على جميع أنواع البراهين، وألوان الأدلّة وسلك جميع طرق الاستدلال، وما من سبيل لإثبات العقيدة إلا وكتاب الله قد سبق إليه وقرّره. ووضع له الأُسس التي يجب أن تحتذى.

2 ـ استدلال القرآن على وجود الله تعالى:

إنّ الأدلّة الواضحة على وجوده تعالى تفوت الحصر وكما يقال: إنّ لله طرائق بعدد أنفاس الخلائق، وقد تعدد الأسلوب الذي اتّخذه القرآن الكريم في الاستدلال على وجود الله سبحانه وتعالى وعظيم قدرته وجليل حكمته. قال ابن الهمام: «أولى ما يستضاء به من الأنوار ما اشتمل عليه القرآن فليس بعد بيان الله بيان وقد أرشد سبحانه إلى وجوده بآيات كثيرة»[47].

3 ـ نحو منهج كلامي جديد انطلاقاً من القرآن:

أحدثت العلوم ثورة فكريّة، وساهمت في تكوين عقليات تهتمّ بالحقائق إلى حدّ كبير وهي تتمثّل في تقديم الكلام على أساس التجربة والمشاهدة لا على أساس التخمينات أو القياسات المنطقيّة. وبذلك سقطت القضايا القائمة

(47) ابن الهمام: المسايرة: 20.

على المسلّمات المنطقيّة لأنّه لا شيء في العقل الحديث يسلم منطقياً إلا وله نقيض منطقي يتحمله في العقل، أمّا التجربة فهي الدليل الذي لا يدفع على قضيتها. وما ينتج عنها لن يجد الشكّ إليه سبيلاً. ولذلك كان لا بدّ من تطوير المناهج الكلاميّة على أساس من هذه الاكتشافات العلميّة الباهرة.

بيد أنّ الفرق بين رجل العلم وعالم العقيدة فرق واحد، هو أنّ العالم يقتصر في بحثه على البحث العلمي، بينما يهدف المؤمن بهذا العمل إلى العبرة والموعظة التي تؤكد على حقيقة الإيمان وتهدف إلى تركيزه. كما يظهر الفرق في طريقة البحث وأسلوب العرض إذ يقتصر العالم الطبيعي على خواص الأشياء وصفاتها وعجائب ما فيها من دقّة صنع وعظيم حكمة تدلّ دلالة قاطعة على وجود الله وكمال قدرته وعلمه.

وقد ظهرت في الفترة الأخيرة كتب كثيرة لعلماء ومفكرين مسلمين فيها نظّروا للعلم الحديث وثمراته في ضوء آيات القرآن التي تتكلّم عن العالم وعجائبه وظاهراته وأسراره لكنّها لا تزال محاولات متفرّقة.

ونمط هذا الاستدلال الجديد قد يكون منعطفاً في الأديان الأخرى كما يتجلّى في كتاب «الله يتجلّى في عصر العلم». ولكن هذا النمط من الاستدلال مبحث أصيل في القرآن. ولكن بعض علماء الكلام هم الذين أخطؤوا في اجتهادهم وانتهجوا منهجاً بعيداً عن الواقع وجنحوا فيه إلى المجردات وإن نبّه بعضهم إلى الأخذ بأساليب القرآن. ذلك لأنّ نمط الاستدلال القرآني إنّما هو نفس النمط الذي يعبر عن الاستدلال بالحقائق الطبيعيّة القائمة على المشاهدة والمؤسسة على المعرفة التجريبيّة. وأوضح الأمثلة استدلال إبراهيم عليه السلام لمّا دعا قومه المشركين إلى التوحيد قبل أربعة آلاف سنة فقد أقام الدليل على دعوته بمشاهدات الشمس والقمر والنجوم: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي

بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [سورة الأنعام، الآية: 75 ـ 79]. إلى أن تقول الآية: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ ﴾ فكلمة حجتنا: تشير إلى نمط الكلام الذي اتخذه إبراهيم عليه السلام كان نمط الكلام الإلهي، ويتجلى من هذا أنّ الحجّة الإلهيّة أو الاستدلال الإلهي هو أن يستدلّ من الحقائق المعلومة المشهودة لهذا الكون.

ونمضي في هذا السّياق فنقول إنّ التّعليم الذي أعطاه الله في كتابه بصورة كلاميّة جعل الكون بأسره دليلاً عمليّاً لتأييده وتأكيده، وأي دليل يكون أقوى من الدليل الذي اتخذه الله لنفسه ولذلك جاء في القرآن في جانب ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ ﴾[سورة الجاثية، الآية: 29] وجاء عن الكون ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وفي جانب آخر ﴿كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سورة المعارج، الآية: 39] وفي هذا يبدو لنا القرآن والكون كليهما إظهار للمشيئة الإلهيّة الربّانية وهو إظهار بصورة عقليّة نظريّة وبصورة عمليّة محسوسة.

وهذا الطريق الاستدلالي هو الذي اختاره الله لجميع رسله فهذا نوح عليه السلام أسلوب استدلاله هو نفس الاستدلال المبني على البراهين الحقيقيّة أو الطبيعيّة يقول نوح عليه السلام: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ﴿١٣﴾ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ﴿٢٠﴾﴾ [سورة نوح، الآية: 10 ـ 20].

وتأمّل في الأسلوب الاستدلالي الذي انتهجه القرآن الكريم هذا الأسلوب المعتمد على الحقائق الطبيعيّة يقول القرآن: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الغاشية، الآية: 17 ـ 20].

إنّ هذا هو الاستدلال القرآنيّ الأصيل الذي بدا عند سائر الرسل من خلال استقرائنا لآيات الكتاب. وتلك هي الحجج التي اعتمدوا عليها. فالحقائق الكونيّة وآيات الله في الآفاق والأنفس أسلوب مقنع يناسب مختلف المستويات البشريّة ويعمّق الحقائق الإيمانيّة على قدر الأبعاد الفكريّة للمخاطبين.

4 ـ مميّزات المنهج القرآني في الاستدلال على وجود الله:

امتاز كتاب الله العزيز بمميزات جعلته خالداً إلى اليوم وإلى الغد وإلى الأبد. فمن أخصّ خصائص القرآن أنّه «كتاب مبين» وقد سمّاه سبحانه «نوراً» و «هدى للناس» و «فرقاناً» و «برهاناً» و «بيّنة».

ومن أهمّ مميّزات القرآن في الاستدلال على وجود الله تعالى:

أ ـ منهج مناسب لجميع المستويات الفكريّة وفهمها لا يتوقّف على علم فائق ودراسة واسعة للعلوم والفلسفات، يفهمها العوام كما يفهمها الخواص، وتناسب جميع المستويات سواء في ذلك العاميّ أو العالم أو الفيلسوف، وكلّ واحد من المستويات يجد فيها ضالته. فنظرة العاميّ إلى قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾ [سورة الطارق، الآية: 5 ـ 6]. تشير إيماناً ساذجاً بعجيب القدرة كما أنّ نظرة «البيولوجي» (عالم الحياة) إلى منشإ الإنسان وخلقه تثير عجبه وإعجابه وإيمانه العميق. ونظرة العاميّ إلى السماء وتلألؤ نجومها وسطوع شمسها وأقمارها تبعث عنده الإيمان بمدبّر هذا الكون وعظمته، والفلكي بمعرفته الواسعة لحركات النجوم وسيرها ونظامها وخلقها وأبعادها أقدر على معرفة العظمة وأشدّ إعجاباً بخالقها ومدبرها. وهكذا الشأن في العاميّ والفسيولوجي، والعاميّ والسيكولوجي، والعاميّ والفيلسوف كلّهم صالح لأنْ يتأثّر بهذا المنهج على اختلاف استعدادهم ومداركهم.

والحقيقة أنّ العالم يزداد خشوعاً كلّما شاهد حكمة الله في مخلوقاته وتجلّت له روعة الله في بديع صنعه، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [سورة فاطر، الآية: 28]. وقيل (كلّما داخلني الشكّ في عقيدتي في الله وجهت وجهي إلى أكادمية العلوم لتثبيتها).

ب ـ منهج القرآن في الاستدلال لم يغرق في التجريد والنظريّات الصرفة كما فعل الفلاسفة، ولم ينهمك في الاستدلالات الأرسطيّة والتفريعات المنقسمة إلى مقدمات كبرى وصغرى ونتائج كما فعل المتكلّمون، وإنّما هو منهج قد اعتمد الإقناع مراعياً في ذلك الفطرة الإنسانيّة وهي قدر مشترك بين الناس جميعاً.

ج ـ منهج القرآن في الاستدلال على وجود الله ينطلق من المحسوس والمحسوس قريب من الإنسان، سهل التناول عقليّاً، وهذه الآيات كثيرة في القرآن وكثرة الأدلّة تفيد القوّة وترسخ الإيمان. وهي تعتمد كثيراً على الأمور الموضوعيّة الواقعيّة. وهذه الأدلّة في مظاهر يكثر عامل الإنسان معها، ولذلك عادة ما تكون محجوبة بقيود الإلف والعادة ولذلك فإنّ القرآن الكريم يدعونا إلى التأمّل فيها ويلفت أنظارنا إلى ما اشتملت عليه من بديع الأسرار وهي كالإنسان والنفس والطعام والمظاهر الطبيعيّة المتنوعّة.

قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [سورة الذاريات].

وقال: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [سورة ،عبس الآية: 24].

وقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾ [سورة الغاشية].

وقد ذكر سبحانه الإبل لأنّها وسيلتهم المفضّلة في السفر. ومادّة الأدلّة القرآنية فضلاً عن كونها محسوسة ففيها منافع للإنسان ومآرب وخلقت لأجل غايات معيّنة، منها ما أدركها العقل، ومنها ما عجز عنه أو لا يزال يحاول إدراكه، والطبع الإنساني قد جبل على حبّ ما ينفعه، وهذه المنافع تهدي إلى شكر المنعم وبالتالي تقود إلى الإيمان.

د ـ منهج القرآن في الاستدلال على مقام الألوهية يخاطب العقل والقلب معاً. ذلك لأنّ الإنسان قد اشتمل على جانبين عقلي ووجداني، والاعتماد على جانب دون آخر لا يوصل إلى الحقيقة الجازمة، ولعله يورّث الشكّ إذا أسرفنا في الاعتماد على ناحية دون الأخرى. لأنّ الإيمان عمليّة متشعّبة سبيلها تظافر الوجدان والعقل معاً.

فالقرآن صيغت أدلّته في منتهى الدقّة المنطقيّة ولكنّها سيقت في جوّ

وجدانيّ يأسر القلب ويهزّ المشاعر ولا يترك المجال للشكّ، فسبحانه من أحكم كتابه وأحاطه بضروب الإعجاز.

هـ ـ منهج القرآن في الاستدلال: لا يكون الدليل فيه على صورة عامّة مجملة، ولكنّه يسوق الأدلّة على هيئة جزئية مفصّلة، وبذلك يغني عن التفصيل بعد ذلك، وما يحتويه التفصيل من تفريعات قد تشغل النفس عن الهدف الأصلي، فضلاً عن أنّ الأمور الجزئية تدركها النفس بسهولة ويسر يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة النحل، الآية: 10 ـ 11 ـ 12]. وذلك على عكس الأدلّة الوضعيّة، فهي تقوم على التعميم، ثمّ تنتقل إلى التفصيل ويحتاج التفصيل إلى تفصيل وهذا من شأنه أن ينفّر الناس ويجعلها تشعر بالملل ويصرفها عن الهدف المنشود.

و ـ منهج القرآن في استدلاله على وجود الله سبحانه يعتمد التنوع بحيث لم يقتصر على مثال واحد في المجال الواحد بل لفت نظر الإنسان إلى عظمة الاختراع ودقّة الصنع في عجائب الحيوان والنبات، وما اشتمل عليه الإنسان من الآيات الباهرة، وما حوته الأرض والسموات من ملايين الكواكب قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة النازعات، الآية: 27 ـ 33]. وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [سورة الروم، الآية: 20 ـ 22].

ز ـ منهج القرآن يساير الفطرة في صوغ أدلّته ويغذّيها ويشعر كلّ إنسان في أعماق نفسه بالاستجابة لها والإصغاء إليها حتى الملحد بعقله.

والفطرة شعور مشترك بين الناس جميعاً كامن فيهم يشهد بأن فوق هذه الكائنات المحدودة المتناهية كائناً غير محدود ولا متناه، يهيمن على كلّ شيء ويدير كلّ شيء، شعور ينبع من أعماق النفس، شعور يجده الإنسان في نفسه بغير تعلّم ولا تلقين ولا اكتساب[48] وهو إحساس يشعر به المرء عندما يتحرر من الميول الفاسدة ويرتفع عن قيود الإلف والعادة. وهذا الإحساس الفطري أجلى ما يظهر عند الشدائد والملمّات، ولكنّه قد يختفي عندما يحاط الإنسان بمظاهر الثراء والبذخ وإلى هذه الحقيقة أشارت الآيات: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سورة الشورى].

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [سورة فصلت، الآية: 51] ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [سورة لقمان، الآية: 32].

ويضرب القرآن مثلاً لهذا الإيمان الذي يبرز فجأة عند الشدائد والملمّات في قوله تعالى: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [سورة يونس، الآية: 91 ـ 93].

وهكذا فإنّ القرآن الكريم حينما يسوق الأدلّة على وجود الله يعدها قضية بديهية وأمراً مسلّماً به ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [سورة الأنعام، الآية: 63]. ﴿مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [سورة النمل، الآية: 64]. ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة إبراهيم، الآية: 10]. فكيف يكون شكّ والفطرة

(48) العقاد: الله ـ 212 ـ.

شاهدة بوجوده مجبولة على الإقرار قال ابن تيمية: «إن فطرة الخلق مجبولة على أنهم متى شاهدوا أشياء من الحوداث المستجدة كالبرق والرعد والزلازل ذكروا الله وسبّحوه لأنهم يعلمون أنّ ذلك المتجدّد لم يتجدد بنفسه بل بمبدع أبدعه وصانع حكيم قد أتقنه».

وقال ابن قيم الجوزية: «إن وجود الربّ تعالى أظهر للعقول والفطر السليمة من وجود النهار ومن لم ير ذلك في عقله وفطرته فيلتهمهما».

وممّا يستأنس به ما ذكره ديكارت في ميثاق الفطرة من أنّها مغروسة في النفس البشريّة أي أنّ الله حين خلق الإنسان أخذ عليه عهداً وميثاقاً لكي تكون علامة الصانع واضحة جليّة مطبوعة في صنعته[49].

لذلك كانت أدلّة وجود الله تعتمد على ما ركّز في الفطرة الإنسانيّة ويتّجه بالخطاب إليها مباشرة لعلّها تتذكّر العهد والميثاق الذي أخذه الله عليها في عالم الذّرّ على حدّ تعبير أحد المفسّرين[50]. قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [سورة يونس، الآية: 31. 32].

5 ـ نماذج من الاستدلال على وجود الله تعالى انطلاقاً من القرآن:

أ ـ تنوع الأدلّة وكثرتها:

لم يكن وجود الله محلّ شكّ في عصر من العصور. فهو حقيقة الحقائق التي ينبع منها كلّ ما في الوجود من الحقائق.

قال الشاعر:

فوا عجباً كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

(49) ديكارت: التأملات في الفلسفة الأولى: 155.

(50) النسفي: التفسير: ج 1: ص 105.

ولله في كلّ تحريكة وفي كلّ تسكينة شاهد
وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه واحد

وقد استعرض المفكرون[51] والفلاسفة شتى صنوف الأدلّة التي قيلت على مرّ العصور وقسّموها إلى أقسام منها:

1 ـ ما سموه برهان الخلق وهو أقوى الأدلّة وأبسطها في ذات الوقت وهو يدور حول بديهة هي أنّ كلّ مخلوق لا بدّ له من خالق.

2 ـ وثاني هذه الأقسام ما وصف بأنّه برهان الغاية والقصد والنظام. فحيثما أجلنا البصر حولنا في الكائنات وجدناها محكمة الصنع، لغاية محدّدة ودلّ على أنّها تسير نحو غاية مسدّدة.

3 ـ أمّا القسم الثالث فهو يسمّى ببرهان المثل الأعلى فالعقل لا يقف عند أمر من الأمور إلا ويتخيّل هناك أنّ ما هو أكمل منه وأجمل وأقدر، وإذن فلا بدّ من انطواء الوجود على هذا المثل الأعلى الذي هو الله تعالى.

4 ـ وهناك أقسام أخرى متنوّعة من الاستدلال منها ما يعود إلى شهادة الوجدان والشعور كبرهان الأخلاق أو وازع الضمير. وسنقتصر على بعض البراهين القرآنية على وجود الله.

ب ـ دليل الخلق:

يعتبر دليل الخلق من أعظم الأدلّة على وجود الله ومن أكثرها بداهة ووضوحاً. وقد اهتم به المفكرون والفلاسفة والعلماء بحسب بيئاتهم وثقافاتهم وقد تأثّر هذا الدليل بما كانت تعجّ به البيئة من العوامل المختلفة.

ونبّه إلى هذا الدليل الماتريدي[52] وغيره كما ينسب إلى ابن رشد الفيلسوف. ودليل الاختراع كما سمّاه أقرب الأدلّة إلى مدارك الجمهور[53]. وقد سمّاه بعض المفكّرين بدليل الإبداع وبدليل الصنع وسمّاه الرّازي بدليل

---

(51) الله: العقّاد: 214.

(52) أبو منصور الماتريدي: كتاب التوحيد: 21.

(53) ابن رشد: مناهج الأدلّة: 45.

الآفاق والأنفس. والقضيّة في هذا الدليل تكمن في طريقة عرضه. وبقدر ما يحسن أسلوب تقديمه وطريقة عرضه بقدر ما يتحقق من نجاح.

وهذا الدليل قد طفحت به آيات الكتاب الكريم، ففيه أكثر من ثمانين آية كلّها تنبّه على مظاهر الخلق وتدعو إلى التأمّل في عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات وبدائع صنعها، وكثيراً ما تختم هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أو ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أو ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ والقرآن في هذا الدليل لا يذهب بالإنسان بعيداً بل يلفت نظره إلى ما تكثر مشاهدته من حوله، وما تعجّ به بيئته من مظاهر الاختراع في الكون كأحوال الأرض والمعادن والنبات وعالم الحيوان من الطيور والزواحف والنمل والنحل وأساليب التفاهم بين كلّ جماعة منها قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [سورة الأنعام، الآية: 38] والكواكب وحركتها وأوضاعها والأحوال المتعلقة بها، من سرعة متناسبة تناسباً دقيقاً مع مسافاتها بالنسبة للشمس، وكذلك بالنسبة لدورانها حول مركزها وما يترتّب على ذلك من آثار الليل والنهار والأزمنة الأربعة من السنة، وما في ذلك من المصالح كأغذية الخلق وتدبير معاشهم وصحّة أبدانهم وسياسة شؤونهم.

وإنّ الأعجوبة في الدّلالة على وجود الله لا في كثرة العدد ولا ثقل الوزن وإنّما العبرة في صغر الحجم مع عجيب التركيب. ولو وقفت على جناح بعوضة وقوف المعتبر وتأمّلته تأمّل متفكر لامتلأت نفسك عبرة ولرأيت من أسرار الخلق ولطيف الحكم ما لا يحصى.

وهكذا إذا استعرضت مظاهر الخلق فلا تستصغرنّ الصغير لأنّ فيه من عظيم التدبير ودقيق الحكم ما يعجز عنه المتفحّص وما لا يدركه إلا العالم المتأمّل.

وظاهرة الحياة وما اشتملت من أسرار تبقى اللّغز الذي لم يكشف أمام العلم، رغم أنّ المواد الأوّلية التي تتكّون منها الأجسام الحيّة معلومة المقادير ومع ذلك عجز البشر عن صنع الحياة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ [سورة الحجّ، الآية: 73].

وظاهرة الإبداع تتجلّى في كلّ كبيرة وصغيرة من هذا العالم فإذا تأمّلته بفكرك وجدته كالبيت المبني المعدّ فيه جميع عتاده، السماء مرفوعة كالسّقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم منضودة كالمصابيح وهي من أشدّ الأشياء تعقيداً فلو أنّ كوكباً حاد عن مساره، أو اختلّت سرعته، وحدث الارتطام بين هذه الكواكب المنضودة لكانت الكارثة ولانتهى الكون. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [سورة الأعراف، الآية: 135]. وقال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [سورة ق، الآية: 6 ـ 10].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة يونس، الآية: 101].

وتأمّل حكمة الله في خلق الأرض كيف خلقت ممهّدة ساكنة، لتكون مستقراً للأشياء جميعاً، ويتمكّن النّاس والأنعام من السعي عليها في مآربهم والجلوس لراحتهم والنوم لهدوئهم والإتقان لعملهم، فإنّها لو كانت رجراجة لم يكونوا يستطيعون أن يتقنوا البناء والنجارة والحدادة... بل كانوا لا يهنؤون بالعيش والأرض ترتج من تحتهم قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [سورة الذاريات، الآية: 43].

ولو فكّر المرء في المطر والصحو كيف يتعاقبان على العالم لما فيه الصلاح، ولو دام منهما عليه كان ذلك فساده. ألا ترى أنّ الأمطار إذا توالت غذّت البقول والخضر واسترخت أبدان الحيوان وخثر الهواء، فأحدث ضروباً من الأمراض وفسدت الطرق والمسالك، وإنّ الصحو إذا دام جفّت الأرض والأبدان وانعدمت الثمار وغيض ماء العيون والأودية، فأضرّ ذلك بالناس وغلب اليبس على الهواء... فإذا تعاقب الصحو والمطر هذا التعاقب المعتدل اعتدل الهواء ودفع كلّ منهما عادية الآخر فصلحت الأمور والأشياء واستقامت.

وتأمّل الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات، وتأمّل خلق ورق الشجر في الورقة تشبه العروق مبثوثة فيها أجمع، فمنها غلاظ ممتدّة في طولها وعرضها، ومنها دقائق تتخلّل تلك الغلاظ منسوجة نسجاً رقيقاً محكماً معجباً لو كان ممّا يصنع بالأيدي كصنعة البشر لما فرغ من ورقة شجرة في كلّ عام كامل.

وظاهرة الاختراع لا تنحصر في عالم النبات ولا في عالم الكائنات الحية، وإنّما تشمل مظاهر الوجود ممّا أدركته عقولنا وممّا لم تدركه بعد، ولقد ثبت علمياً أنّ الكائنات الحيّة عبارة عن عوالم أخرى وقف أمامها العلم عاجزاً عن حلّ كثير من ألغازها.

ج ـ خلق الإنسان أعظم آية على وجود الله:

كلّ شيء في خلق الإنسان آية من آيات الله تعالى، يدلّ على التدبير والقصد والأحكام من الله ويبعد به عن الإهمال والصدفة. وأي شيء فيه ليس مثار دهشته وعجبه؟ أليس نظام طعامه وشرابه وتحليل الطعام إلى عناصر مختلفة بموازين يذهب كلّ عنصر إلى حيث يؤدي وظيفته، وأما ما لا يفيد فيلفظ إلى الخارج.

أليس توزيع الدم من مكانه الرئيسي وهو القلب في أنحاء الجسم بواسطة الشرايين التي لا يحصى عددها إلا الله ثمّ عودته إلى القلب بواسطة الأوردة ليفيد منه الجسم آية من آياته سبحانه. وتأمّل حكمة التدبير في تركيب البدن ووضع هذه الأعضاء في مواضعها وإعداد هذه الأوعية فيه لتحمل تلك الفضلات ولا تنتشر في البدن.

أفلا ترى جسم الصبي كيف ينمو بجميع أعضائه نمواً في توازن وبمقدار لجميع الأجزاء في تناسق، أوليست أطواره في الرّحم آية من آياته سبحانه وتعالى. وأعجب من هذا تصويره في الرّحم حيث لا تراه عين ولا تناله يد يخرج سويّاً بجميع ما به قوامه من الأحشاء والجوارح... إلى ما في تركيب أعضائه من العظام واللّحم والشّحم والمخّ والعصب والعروق والغضاريف من دقائق التركيب والتقدير والحكمة.

وكلّ شيء في الإنسان يدلّ على الحكمة والإتقان. فبصره وسمعه وعقله لو تأمّلتها لامتلكك العجب. ولو فكّرت في أعضاء الإنسان وما خلقت عليه أفراداً وأزواجاً لرأيت ما في ذلك من الصواب والحكمة. وتأمّل لين المفاصل في الإنسان وكيفية تهيئتها حتى صار بها يقبض ويبسط ويتقلّب في مختلف الأحوال وتأمّل ما في هذه المفاصل من غضاريف تمنع العظام من الاحتكاك ومواد دهنية تسهّل الحركة، ثمّ مفاصل تتحرّك إلى الأمام مثل مفصل المرفق، ومفاصل تتحرّك خلفاً مثل مفصل الركبة. ومفاصل تتحرك لجميع الجهات مثل مفصل الرسغ فستدرك أنّ مدبّر هذا الجسم قوّة حكيمة عاقلة وهو الله سبحانه وتعالى.

وليس هذا الدليل مقتصراً على هذه الظواهر بل إنّك تلمسه في اختلاف الناس وألوانهم وأصواتهم وبصماتهم، فإنّه لا يوجد شخص كالآخر، أو يشبهه شبهاً دقيقاً في الظاهر والباطن بل كلّ واحد عالم قائم بذاته وفي ذلك أعظم قدرة لله تعالى تتجلّى في مخلوقاته وتشهد بألوهيته.

هذه الإشارات من برهان الخلق هي قطرة من بحر، وذرّة من ذرّات هذا الوجود، لو أحكمنا استغلالها بما وصل إليه العلم من اكتشافات، وأبرزنا مظاهر الإبداع في صور من العرض العلمي الدّقيق لطورنا علم الكلام القرآني تطوّراً يواكب العصر، وجعلنا من أدلّة وجود الله مادّة مشوّقة تأسر العقول والقلب وتدعو إلى الإيمان وترسّخ العقيدة الإسلامية.

د ـ دليل الإتقان والعناية:

مظاهر الإتقان: دليل الإتقان ويسمى بدليل التقدير وبدليل الإحكام وبدليل نظام العالم. فهذا الكون يبدو على جميع مظاهره صواب التدبير والتنظيم الدقيق والصنع المحكم. فكلّ شيء بحساب دقيق في ذاته ومع غيره ليحصل التوازن الشامل بين أجزاء الوجود.

لقد كان من أهمّ ما اكتشفه الإنسان في هذا العصر أنّ هذا العالم يخضع إلى منتهى الدقّة، يدركه ذلك الإنسان في تعاقب اللّيل والنّهار، والصيف والشتاء، وحركات الشمس والقمر، ثمّ كلّما ازداد تعمّقه في دراسة الطبيعة

ازداد إيماناً بهذا النظام ودقّته، فإذا تبيّن في شيء ما فوضى أدرك فيما بعد أنّ ذلك يعود إلى جهله بقوانينه لا حاجته إلى النظام. وأكثر الناس إيماناً بالنظام في فرع من فروع العلم علماء ذلك الفرع، فالفلكيون أشدّ الناس إيماناً بنظام الكواكب، وعلماء الحيوان في الحيوان، وعلماء النبات في النبات، وعلماء وظائف الأعضاء في وظائف الأعضاء، وأطباء العيون وهكذا، كلّ يدرك أتمّ نظام وأدقّه في فرعه. والفيلسوف يدرك ذلك في العالم كوحدة، بل يدرك أنّه لولا نظم ناحية من النواحي العالم ما كان لها علم. فالعلم معناه جملة من القوانين المنظمة تتعلّق بجانب من جوانب الحياة. كالنبات والحيوان والفلك، حتّى الجسم في مقاومته للمرض يفعل الأعاجيب في نظامه. ولولا ذلك ما كان طبّ. ثمّ كلّ جزء من أجزاء العالم مرتبط بأجزائه الأخرى. يخضع هو وهي لنظام عام كعلاقة الخلية في الجسم بالجسم كلّه، فالعالم حروف هجاء ترتبط ألفه ببائه ارتباطاً قريباً، وألفه ببائه ارتباطاً بعيداً، وكلّها تكوّن نظاماً واحدا، وتخضع لقوانين واحدة حتّى أنّ العالم الدّقيق النظر لو تعمّق في دراسة جزء من أجزاء العالم أعانه ذلك على فهم سائر أجزائه لشبه القوانين ووحدة النظام، وبلغ من دقّة نظامه أنّه لولا نظامه ما وجد.

وهذا التقدير ظاهرة عامّة في كلّ شيء وقد نبّه القرآن على ذلك في مواطن عديدة إذ قال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [سورة الرعد، الآية: 18]. وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: 2]. وقال: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [سورة الطلاق، الآية: 3]. وقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [سورة القمر، الآية: 49] وقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [سورة الحجر، الآية: 21].

إنّ يد الله التي خلقت قد أرت نفسها في خلقها، وإرادة الله التي خصّصت أرت نفسها في مبدعاتها، وحكمة الله ظاهرة في هذا الكون.

ولا شكّ أنّ نظاماً بديعاً معجزاً كهذا فيه دلالة على أنّ هذه الكائنات لم تخلق عبثاً. وليست نتيجة قوّة عمياء بل من وراء ذلك قوّة مدبّرة عليا، قد ضبطت كلّ شيء بمقدار.

وكلّ ما في هذا الكون لا تكاد تتحرّك فيه ذرّة واحدة على غير هدى أو غير محكومة بقاعدة معينة وناموس مخصوص، وكلّ ما فيه كتاب مفتوح يقرأه كلّ من يتأمّله ويتدبّره بعين العقل والوجدان ليتّضح أمام بصيرته ما فيه من نظام وقوانين تحكمه وتلائم أجزاءه وتتكامل.

لو تأمل الإنسان أعضاءه وخلاياه وما بينها من تعاون وتناسق وتوازن لأدركنا من دقّة التقدير وإحكام التدبير ما لا ينقضي منه العجب وممّا ذكره «أ. كريسي مورسون» في فصل ضوابط وموازين من كتابه قال: «ما أعجب نظام الضوابط والموازنات في الكون»[54] ثمّ يعدّد بعد ذلك مظاهر التوازن في الكون فيظهر أمراً عجباً كالهواء والماء والتوازن بين الحشرات في الليل والنهار. ولقد نبّه القرآن الكريم إلى هذه الظواهر الكونيّة في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾ [سورة النبأ، الآية: 6 ـ 16].

وكمثل قوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [سورة الرعد، الآية: 4] وكمثل قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣١ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٣٣﴾ [سورة الأنبياء، الآية: 30 ـ 31].

هذه الحقائق الجليّة من الظواهر الكونية في الإنسان والحيوان والنبات والمظاهر الطبيعيّة المختلفة التي لا تحصى ولا تعدّ، كلّها براهين تشهد بأنّ

(54) العلم يدعو إلى الإيمان: 20.

وراء هذا العالم المتقن والكون المنظّم عليم حكيم قد نظّمه، لأنّ من المتناقضات وجود تنسيق عجيب وترتيب بديع بلا منسّق ولا مرتب.

وهذه الحقيقة التي تشكّل برهاناً يقينيّاً على وجود الله جلّ جلاله والتي تسمّى عند بعض المفكّرين والفلاسفة (العلّة الغائية) وتسمّى عند علماء العقيدة بـ (دليل النظام والتدبير) أو (دليل الحكمة والتناسق) هي التي يظلّ القرآن يوجه العقول بأساليب رائعة متنوّعة يفهمها النّاس على اختلاف مستوياتهم وثقافاتهم. وهو برهان يخرس ألسنة الملحدين ويسدّ في وجوههم منافذ الحيل كلّها.

والأسلوب العملي الأمثل في هذا البرهان هو الاهتداء بآيات الله وإبراز مظاهر إتقانه في الوجود بوسائل علميّة تبعث على الإيمان وترسّخه.

مظاهر العناية: دليل العناية أشهر الأدلّة على وجود الله وأثراها إقناعاً للعقول البشرية. وهو قسم من دلالة نظام العالم.

وقد فضّله ابن رشد على سائر الأدلّة وذكر أنّه دليل قرآني يقول في هذا الشأن إنّ الهدف منه (الوقوف على عناية الله بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله)[55] ووضعها متناسبة معه، موافقة لمتطلّبات وجوده ملائمة لظروفه ومنافعه.

فالكون بجميع أجزائه مسخّر لخدمة النوع البشري، فمن أعظم كائن فيه إلى أصغر كائن، الكلّ يخدم هذا النوع. وهذه الحقيقة مدهشة للغاية، أن يكون هذا الكون الفخم الهائل بكلّ ما فيه، من أجرامه السماويّة، ومخلوقاته الأرضية، الجميع مسخّر تسخيراً خاصّاً لخدمة نوع واحد من بين سائر المخلوقات التي حواها الكون وانتظمها هذا الوجود على أساس الحقّ والعدل والخالي من العبث.

إنّ كلّ شيء في هذا الكون محكوم بالعناية الإلهية... يتحدث الله عن هذه العناية. فيقول إنّه سخّر لنا البحر، وسخّر لنا ما في السماء والأرض جميعاً منه ويلفتنا بعد ذلك إلى التفكير والتأمّل ويقول تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى

(55) ابن رشد: مناهج الأدلّة: 150.

سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الجاثية، الآية: 12 ـ 13].

ولو تأمّلنا حكمة تسخير الله للبحر سوف نلحظ أوّل إشارة لمعنى العناية الإلهيّة، وإنّ الحياة تبدأ من الماء، وبغير الماء تهلك الكائنات على الأرض، وكلّ ما في الأرض من مياه عذبة هي أصلاً مياه قادمة من البحر.. إنّ المياه تغطي أربعة أخماس كوكبنا الأرضي.. بحيث ترى الأرض في الفضاء مثل كرة مائية مغلقة تدور حول نفسها.. وبسبب حرارة الشمس تتبخّر المياه وتصنع السحب.. وبسبب كهرباء السحب تسقط الأمطار، ولولا سقوط المطر لاستحال وجود الأنهار والبحيرات، ولاستحالت الزراعة على الأرض، فكلّ ما في الكون يقطع بوجود الله تبارك وتعالى ويشهد له. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل، الآية: 10 ـ 11].

وقد جعل ابن رشد دليل العناية من أشرف الأدلّة على وجود الله، واعتبره دليل الشرع يقول شارحاً هذا الدليل: فأمّا دليل العناية فينبني على أصلين: أحدهما أنّ جميع الموجودات التي ههنا موافقة لوجود الإنسان.

والأصل الثاني أنّ هذه الموافقة هي ضرورة من قبل فاعل قاصد لذلك مريد، إذ ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتّفاق. فأمّا كونها موافقة لوجود الإنسان فيحصل اليقين بذلك باعتبار موافقة الليل والنهار والشمس والقمر لوجود الإنسان. وكذلك موافقة الأزمنة الأربعة والمكان الذي هو فيه أيضاً وهو الأرض، وكذلك تظهر أيضاً موافقة كثير من الحيوانات والنبات والجماد وجزئيات كثيرة مثل الأمطار والأنهار والبحار وبالجملة الأرض والماء والنار والهواء، وكذلك تظهر العناية في أعضاء الإنسان والحيوان كونها موافقة لحياته ووجوده[56].

(56) ابن رشد: مناهج الأدلّة: 151.

ويستقرىء ابن رشد آيات العناية في القرآن الكريم ويصنّفها ويفعل مثل ذلك في آيات الاختراع ويرى في آيات أنّها تجمع دلالة العناية والاختراع معاً.

أمّا العناية فقد نبّه عليها الكتاب العزيز بمثل قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: 51]. ومثل قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [سورة البقرة، الآية: 22]. ومثل قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [سورة الأنعام، الآية: 97].

وبالنسبة لدليل الاختراع فقد نبّه عليه بمثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [سورة الأعراف، الآية: 185]. وكقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الطور، الآية: 35 ـ 36].

وقد ذكر ابن رشد أنّ هناك آيات تجمع دلالتي العناية والاختراع كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وإلى قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فإنّ قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ تنبيه على دلالة الاختراع وقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ تنبيه على دلالة العناية.

هـ ـ أدلّة قرآنيّة متنوّعة:

أنّ أدلّة وجود الله تعالى كثيرة متنوّعة، يمكن أن تشمل آيات قصار إشارات واضحة إلى براهين على وجوده سبحانه كمثل قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [سورة الأعلى، الآية: 1 ـ 2 ـ 3]. فلقد قدّمت هذه الآيات أدلّة بيّنة كدليل التسوية ودليل التقدير وهما دليلان يتفرّعان عن دليل نظام العالم.

وأمّا دليل الهداية الذي يندرج تحت برهان العلّة الغائية، وهو دليل ثري لأنّه ما من موجود على ظهر الكون إلا ويسير نحو غاية مسدّدة وهدف واضح، يتجلى ذلك في عالم الحيوان والنبات والجماد.

فالنّحلة رغم صغر حجمها فيها غريب الحكم وعجيب التدبير كالادخار

ليوم العجز عن كسبها، وشمّها ما لا يشمّ، ورؤيتها ما لا يرى، وحسن هدايتها والتدبير لملكها، طاعة سادتها، وتقسيط أجناس الأعمال بينها على أقدار معارفها وقوّة أبدانها. والنبتة من أوحى لها بالصعود إلى الأعلى في نموّها ومن همس لها بالإزهار والنضوج في زمن معيّن.

والصغير ما إن ولدته أمّه حتّى يلقم ثديها فمن هداه إلى ذلك...؟ هذا الدليل مشاهده متحرّكة تنبض بالحياة فإذا أحكمنا رسم هذه اللوحات بأسلوب علمي دقيق أوصلتنا إلى الإيمان الصحيح.

و ـ آراء في الاستدلال على وجود الله من القرآن:

نبّه علماء الأمّة الإسلامية على أهميّة براهين القرآن على وجود الله وفضّلها على غيرها من بين سائر الأدلّة بقول الغزالي (إنّ أدلّة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كلّ النّاس وأدلّة المتكلّمين والفلاسفة مثل الدّواء ينتفع به آحاد النّاس به ويستضرّ به الأكثرون)[57] فلقد شبّهها حجّة الإسلام بالطعام المعدّ لاستهلاك عموم النّاس وليس لفئة دون أخرى.

وقال العقّاد: (إنّ البراهين التي جاء بها القرآن الكريم وخصّها بالتوكيد والتّقرير هي أقوى البراهين إقناعاً)[58].

فالأجدر بنا في هذا العصر العود إلى منهج القرآن في الاستدلال على وجود الله والأخذ ببراهينه غير غافلين عمّا كشف عنه العلم الحديث من حقائق توافق آيات القرآن الكريم وإبرازها بحكمة في موطن الاستدلال.

---

(57) الغزالي: إلجام العوام عن علم الكلام: 20.

(58) العقّاد: الله: 237.